دراسات في ضوء الكتاب والسنة (٢)

أركان الإيمان في ضوء الكتاب والسنّة

تأليف

الدكتور محمد عبد القادر هنادي

جامعة الملك عبد العزيز - كلية الآداب
جدة

دار المجتمع للنشر والتوزيع

جدة: ميدان الجامعة - ص.ب: ٤٠٨٤٥ جدة ٢١٥١١ ت الإدارة ٦٨٩١٤١٧ المكتبة ٦٨٩٤٤٦١
الخبر: شارع الأمير نايف - ص.ب: ٢٣٢١ الخبر ٣١٩٥٢ ت ٨٩٤١١٣٦

أركان الإيمان
في ضوء
الكتاب والسنّة

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم ا الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ورضي الله عن آله الطاهرين، وأصحابه الطيبين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإن علم أصول الدين من أشرف العلوم في هذه الرسالة الإسلامية، ولهذا سَمَّىٰ الإمام أبو حنيفة رحمه الله ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين «الفقه الأكبر»، فحاجة العباد إلى هذا العلم فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة، لأنه لا حياة للقلوب ولا طمأنينة إلا أن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله.

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يبقى رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة يغرس في نفوس الصحابة عقيدة الإيمان الصافية، ويزيل عن القلوب والعقول كل التصورات والعقائد الجاهلية، لأن إصلاح العرب في الجزيرة لا يتم إلا بإصلاح العقيدة أولاً، وبعد ذلك يأتي الإصلاح الخلقي والسلوكي والاجتماعي والاقتصادي، وهكذا فعل رسول الله ﷺ.

والأمة الإسلامية اليوم تتعرض لتحديات داخلية وخارجية تستهدف

عقيدتها وكيانها، فمن فرق باطنية ومذاهب هدامة في داخل المجتمعات الإسلامية، إلى صور من التحديات الثقافية والفكرية والاجتماعية، إلى غزو فكري وافد إليها من خارج العالم الإسلامي، وتقف خلفه القوى الشيوعية واليهودية والصليبية، وكل هذه التحديات في مختلف صورها وأشكالها إنما تهدف إلى سلخ الأمة الإسلامية عن عقيدتها، لأن عزتها وسيادتها وقوتها في الأرض في تمسكها بعقيدتها الإيمانية.

ومن هنا فإننا بأمس الحاجة إلى أن نعود إلى عقيدة الإيمان فنغرسها في العقول، ونزرعها في النفوس، ونربي أجيالنا الناشئة تربية إيمانية، سواء أكانوا قضاة في محاكمهم الشرعية والمدنية، أم أساتذة في المدارس والجامعات، وسواء أكانوا أطباء في العيادات، أم جنوداً في الثكنات... فتربية الأمة تربية إيمانية هي خير وسيلة نُحصن بها جبهتنا الداخلية من هذه الرياح والعواصف الشديدة التي تعصف بها من كل جانب، وتحاول أن تنال من قوتها التي عرفت بها آماداً طويلة من الزمن.

وهذه التربية الإيمانية لها منهج حكيم أشار إليه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في قوله:

«لقد عشنا برهة من الدهر، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها، وأوامرها وزواجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ولقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأُ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدري ما آمره وما زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده، ينثره نثر الدَّقَل»[1].

ونحن أمة الإسلام ـ بأمس الحاجة إلى أن نحيي علم الإيمان اتباعاً لسنّة رسول الله ﷺ وأصحابه.

* * *

(١) الدقل: رديء التمر.

وإن الـذي يلفت نظر البـاحث أن الصحابـة رضوان الله عليهم، استقـوا عقيدتهم خاصة فيما يتصل بوجود الله وذاته وصفاته وأسمائه من نبـع واحد هـو نبـع القـرآن الكـريم، ولم يكن هـذا عن افتقـار في الحضـارات والثقـافـات والعلوم، كـلا، فقد كـانت هناك الحضـارة الفارسيـة وأشعـارهـا وأسـاطيـرهـا وقوانينها، والحضارة الرومـانية ومعـارفها، والحضـارة الإغريقيـة وفلسفتها. . . ومعنى هـذا أن هناك منهجـاً محدداً ومـرسومـاً في تلقي العقيدة، يتضـح هـذا المنهـج عندمـا رأى رسـول الله ﷺ في يـد عمـر بـن الخـطاب رضي الله عنـه صحيفة من توراة يقرأ فيها فقال:

«إنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني».

والعقيدة الإسلامية من ميزاتهـا أنها عقيـدة واضحة وهي عقيـدة الفطرة، فهي ليست غريبة عنها، ولا مناقضة لها، ولهذا فإن القرآن الكريم حينما عالج أمـر العقيدة لم يعـالجهُ معـالجة فلسفيـة عقلية جـافة كمـا حدث في العصـور التالية.

وهذا ما شهد به العلمـاء من السلف الصالـح ممن اشتغلوا بعلم الكلام فهذا أبو حامد الغـزالي يقول: «أكثـر الناس شكـاً عند المـوت أهل الكـلام»، وهذه دعوة صادقة من الفخر الرازي الـذي نبذ الأسـاليب الفلسفية في معـالجة قضية العقيدة، فإذا به يقول عند احتضاره في وصيته التي أملاها لتلاميذه:

«لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي غليـلاً، ولا تروي عليلاً، ورأيت أقرب طريقة القرآن».

ولا يسعني هنا إلا أن أتوجه بهذه الدعوة الصادقة المخلصة إلى الباحثين والمفكـرين من الدعـاة والعلماء في العـالم الإسلامـي إلى أن يعودوا إلى نبـع القـرآن الكريم والسنّـة النبويـة في غرس العقيدة الإسلاميـة في نفوس النشىء المسلم، فهذا هو المنهج السليم، الذي كـان عليه سلف الأمـة من الصحابـة

وأوائل التابعين رضوان الله عليهم، وهذا ما حاولت أن أسلكه في كتابي هذا ولله الحمد.

* * *

والإيمان ليس مجرد تصديق قلبي غير متبوع بأثر عملي في الحياة، إنه اعتقاد وقول وعمل، وقد ذكر القرآن الكريم الإيمان مقروناً بالعمل الصالح في أكثر من سبعين آية، من ذلك قوله تعالى:

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ﴾، ورسول الله ﷺ دعانا إلى أن نقرن الإيمان بالعمل الصالح، من ذلك قوله ﷺ **فيما رواه الترمذي: «الكَيِّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أَتبَعَ** نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني».

وللإيمان ثمرات مباركة طيبة في حياة الفرد والجماعة، فمن ثمراته في حياة الفرد أنه يبعث الطمأنينة في القلب، والسكينة في النفس، ويقي الإنسان من الأمراض النفسية التي شاعت في المجتمعات البشرية في القرن العشرين.

والمؤمن الحق لا مكان في نفسه للصراعات الداخلية ما دامت هذه النفس قد استقت تعاليمها من ينبوع القرآن الصافي، ولا مكان للأمراض النفسبة والعصبية ما دامت هذه النفس المؤمنة قد تربت على عقيدة التوحيد.

ومن ثمراته في حياة الفرد كذلك أنه قد يتعرض لمحنة في حياته، وقد تكون هذه المحنة في دعوته ونفسه، أو في أهله وماله، وبالإيمان وحده يستطيع أن يواجه تلك المحن والمصاعب والشدائد.

ومن ثمرات الإيمان في حياة المجتمع أن الناس يعيشون في المجتمع **الإيماني آمنين على عقيدتهم ودينهم، آمنين على دمائهم وأموالهم وأعراضهم،** وليس هذا الأمن خاصاً بالمسلمين وحدهم، بل أهل الكتاب من اليهود والنصارى نعموا بهذا الأمن أمداً طويلاً، وتاريخنا الإسلامي خير شاهد على ذلك.

ومن ثمرات الإيمان المباركة في حياة المجتمع أن الناس في ظلال المجتمع الإيماني يعيشون في أجواء من الرحمة والعطف والشفقة، فالمؤمن لا يعرف قسوة في قلبه، أو غلظة في معاملته، إنه يحمل قلباً حياً مرهفاً ليناً رحيماً، يرق للضعيف، ويألم للحزين، ويحنو على المسكين، ويمد يده إلى الملهوف، وبهذا القلب الحي الرحيم ينفر من الإيذاء وينبو عن الجريمة، ويصبح مصدر خير وسلام لمن حوله».

وهكذا كان السلف الصالح رحماء بالأطفال، رحماء بالنساء، رحماء بالحيوان، رحماء بالنبات والجماد[1].

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أستقصي بعض ثمرات الإيمان في حياة الفرد والمجتمع استقصاءً يدفعنا إلى ن نحيل عقيدتنا الإيمانية النظرية التي نحملها في قلوبنا وعقولنا إلى تطبيق عملي، لعلنا نعيد للبشرية شيئاً من حياة السلف الصالح رضوان الله عليهم.

* * *

وختاماً إن كان لي شكر وثناء وحمد أقدمهُ فإنني أحمد الله تعالى أولاً أن نجاني من القوم الظالمين، وأخرجني من دياري التي تربيت فيها، وعشت فوق أديمها، وأسكنني في هذه السنوات الثمانية في رحاب بيته الحرام أو قريباً منه أرفل في نعمة الأمن والأمان في ربوع هذه البلاد الآمنة المطمئنة، تلك النعمة التي افتقدتها في بلدي، وافتقدها كثير من الناس في المجتمعات البشرية.

والثناء كل الثناء لله تباركت أسماؤه إذ وفقني أن أخلو بنفسي بعد صلاة الفجر حيناً من الدهر، وأعكف على كتابة هذا البحث في أجواء إيمانية مباركة.

---

(١) كما سيأتي فبيان ذلك لدى الحديث عن الإيمان والرحمة.

فاللهم لك الحمد على ما وفقتَ وأعنتَ ويسرتَ وسترتَ، وأسألك المزيد من الرضى والقبول والرحمة والثبات، وأن تجعل عملي كله خالصاً لوجهك الكريم، وتنفعني به في الدنيا والآخرة.

د. محمد عبد القادر هنادي

جدة - صفر - ١٤١٠ هـ * * *

الفصل الأول

الإيمان بالله

وفيه مبحثان:



المبحث الأول

دلائل وجود الله

* أولاً : دليل الفطرة.
* ثانياً : دليل الهداية.
* ثالثاً : البحث العلمي يدعو إلىٰ الإيمان.
* رابعاً : دليل الإتقان في خلق الكون.



المبحـــث الأول

دلائل وجود الله

الأدلـة التي تثبت حقيقة وجـود الله أدلة كثيـرة، لكنني سأشيـر إلى أربعة منها، وهي: دليل الفطرة، دليل الهداية، دليـل البحث العلمي، دليل الإتقـان في الكون، وإليك البيان مفصلاً.

أولاً: دليل الفطرة:

أقرب الأدلة إلى إثبات حقيقة وجود الله دليل الفـطرة، انطلاقـاً من قولـه سبحانه: ﴿ فـأقم وجهك للدين حنيفـاً، فطرة الله التي فـطر الناس عليهـا، لا تبـديل لخلق الله، ذلـك الدين القيّم ﴾[1]. فـالخـالق عـزّ وجـلّ حينمـا خلق الإنسان أودع في نفسه جملة من الغرائز كغريزة الأمومة والأبوة، وغريـزة الميل إلى الطعام والشراب، وغريزة حب البقاء... وسواها من الغرائز، ومعها أودع الله في النفس الإنسانيـة فطرة بها يهتدي إلى الوجود الحق فيما إذا تركت هذه الفطرة على استقامتها وسلامتها وصفائها، دون أن يحتاج صـاحب هذه الفـطرة السوية إلى زاد علمي أو فلسفي بهما يصل إلى شاطىء الإيمان.

وقد حاول الفيلسوف الأندلسي المسلم ابن طفيل أن يثبت هذه الحقيقـة ويقررها في عالم الواقع، فكتب قصته «حي بن يقظان»، ومضمونها يقوم على

---

(١) الروم ٣٠.

أن طفلاً وجد في جزيرة نائية خالية من البشر، ومعنى هذا أنها خالية من العقائد السماوية والبشرية الوضعية، وشب هذا الطفل عن الطوق وأخذ ينمو وتنمو معه قواه العقلية الفطرية، فوصل بها إلى حقيقة وجود خالق لهذا الكون العظيم. يقول ابن طفيل على لسان بسكال في قصة حي بن يقظان: «إن العقل يستطيع بما لديه من الأفكار الفطرية الأولى أن يدرك الحق فيما يتعلق بالمبادىء الأولى، ويدرك بها وجود الله»[1].

وهناك تجربة واقعية عملية عايشها أحد العلماء المعاصرين.. فقد قضى سنوات طويلة يتيه في صحراء العقائد الجاهلية، فمن ماركسية إلى وجودية إلى هندوسية تؤمن بعقيدة التناسخ[2]، ولم يترك سبيلاً علمياً أو فلسفياً للوصول به إلى شاطىء الإيمان، ولكنه لم يفلح فكان مزيدٌ من الضياع... مزيد من الشرود... مزيد من الضلال... مزيد من التيه في ركام الفلسفات والعقائد الوضعية الجاهلية.. وشاء الله له الهداية ولكن بالعودة إلى الفطرة.. إنه الدكتور مصطفى محمود، ولنستمع إليه وهو يتحدث بنفسه عن نفسه[3]:

«العجب كل العجب لمن يسألنا عن برهان على وجود الله، على وجود الحق وكيف يكون موضع شك من هو قِبْلَةُ كل العقول، ومهوى جميع الأفئدة، وهدف جميع البصائر؟ كيف نشك في وجوده وهو مسؤول عن كل مشاعرنا؟.

إني لا أجد نصيحة أثمن من أن أقول: ليعد كل منا إلى فطرته.. ليسأل قلبه وسوف يدله قلبه على كل شيء، فقد أودع الله في قلوبنا تلك البوصلة التي لا تخطىء والتي اسمها الفطرة، وهي فطرة لا تقبل التبديل ولا التشويه لأنها محور الوجود، وعليها تقوم كل المعارف والعلوم، «فأقم وجهك للدين

---

(١) لا نزاع بين الدين والعلم - د/. عبد الحليم عويس ص ٢٨ - ٢٩.
(٢) أنظر كتابه رحلتي من الشك إلى الإيمان ص ١٣.
(٣) رحلتي من الشك إلى الإيمان ص ٧٨.

حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله».

وقال في موضع آخر:

«لو أني أصغيت إلى صوت الفطرة، وتركت البداهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل ولقادتني الفطرة إلى الله.. ولكنني جئت في زمن تعقد فيه كل شيء، وضعف صوت الفطرة حتى صار همساً، وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغروراً واعتداداً»(١).

وهذه الفطرة الصافية السوية المستقيمة هي التي جعلت أعرابياً من الأعراب منذ مئات السنين يقرر ويثبت حقيقة وجود الله بأسلوب كله وضوح ويسر وإشراق.. جاءه من يسأله عن وجود الله، فقال:

«البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ليل داجٍ، ونهار ساجٍ، وسماء ذات ـ أبراج، أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟».

أرأيت كيف أن هذا الأعرابي وضع هذه البديهية التي لا ينكرها عاقل، البعرة تدل على البعير، وإن لم يكن للبعير وجود حسي، والأثر يدل على المسير وإن لم يكن للرجال أصحاب الأثر وجود.. ثم انطلق إلى إثبات الحقيقة الكبرى، فالليل الداجي، والنهار الساجي، والسماء ذات الأبراج تدل على الله اللطيف الخبير.

إنها الفطرة السوية الصافية، لا الفلسفة، ولا المنطلق، ولا الجدل، ولا العلم... الفطرة أوصلت هذا الأعرابي إلى إقرار هذه الحقيقة، حقيقة وجود الله.

وبدليل الفطرة الهادية استطاع الإمام جعفر الصادق أن يقنع بعض الزنادقة بحقيقة وجود الله، فقد جاء نفر منهم يجادلونه في الله وبالحوار الهادىء، والحكمة والموعظة الحسنة أعادهم الإمام جعفر إلى شاطىء الإيمان

---

(١) المرجع السابق ص ٩.

«فقال لأحدهم: ألم تركب البحر؟ قال: بلى قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بك الريح عاصفة؟ قال: نعم، قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم، قال: فهل خطر ببالك، وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم، قال جعفر: فذلك هو الله» وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الإنسان يشعر بحاجته إلى الالتجاء إلى الله في حال المحنة والضر والمصيبة، من ذلك قوله سبحانه:

﴿ وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً. . . ﴾[١].

فالإنسان يظل مدفوعاً مع تيار الحياة يخطىء ويذنب، ويطغي ويسرف، والصحة موفورة والظروف مؤاتية، وليس إلا من عصم الله ورحم من يتذكر في إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفاً، وأن هناك عجزاً. . . ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع، وإذا هو كثير الدعاء[٢].

ويقول الله تعالى في موضع آخر:

﴿ هو الذي يسيركم في البرّ والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بِهِمْ بريحٍ طيبه وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونَنّ من الشاكرين ﴾[٣].

إنها الفطرة الأصيلة الصافية السليمة التي لا تتحرك في النفوس بتوحيد الله إلا في أوقات الشدة حين تتلاطم الأمواج، وتهب الرياح العاصفة العاتية. . . عندها يتذكر الإنسان وجود الله فيخلص الدينونة له.

* * *

---

(١) يونس ١٢.

(٢) في ظلال القرآن جـ ٣/١٧٦٩.

(٣) يونس ٢٢.

ثانياً: دليل الهداية:

أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل في إثبات وجود الله على لسان موسى عليه الصلاة والسلام حين سأله فرعون عن ربّه، ﴿قال فمن ربكما يا موسى؟، قال ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[1].

فما من شيء في هذا الوجود إلا وله صورة في الخلق تختلف عن صورة خلق الأشياء الأخرى، فالإنسان له هيئة في الخلق تختلف عن هيئة خلق الحيوان، والحيوان له صورة في الخلق تختلف عن صورة خلق النبات، والنباتِ له هيئة في الخلق تختلف عن صورة خلق الجماد... هذا الاختلاف في الخلق إنما يدل على وجود خالق وهب لكل شيء في الكون وجوده وخلقه، ولكن الله رحمة منه وفضلاً وكرماً لم يكتفِ بإعطاء كل شيء خلقه، إنما هداه إلى القيام بوظيفته خير قيام.

فالكريات البيضاء في الدم لها شكل معين، وصورة محددة من حيث مادتها وطبيعتها وشكلها، لكنها حين تقوم بوظيفة تطهير الدم إذا غزته الجراثيم إنما تقوم بتلك الوظيفة لهداية الله لها.

والقلب كذلك من حيث أوصافه وطبيعته معروفه لدى علماء التشريح، ولكنه حين يقوم بعملية ضخ الدم إلى كافة أنحاء الجسم إنما يقوم بتلك العملية خير قيام لهداية الله له.

والنبات من حيث تكوينه وأوصافه وخصائصه معروف لدى علماء النبات، ولكنه حين يقوم بعملية التمثيل الضوئي إنما يؤدي تلك الوظيفة المحكمة الدقيقة لهداية الله له... وقس ذلك على كل ذرة ونملة ومجرة فما من شيء في هذا الوجود إلا وله خلق، ومع الخلق هداية له للقيام بوظيفته خير قيام.

---

(١) طه ٤٩ ـ ٥٠.

١ ـ الهداية في عالم الحشرات:

حين يجول الإنسان ببصره وبصيرته في حدود ما يطيق في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل كائن صغيراً أم كبيراً، من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان هذا الوجود كل خلية فيه تحيا، وكل حي فيه يتحرك... وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس الكونية[١]. المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات، وجولة في عالم الحشرات، وتأمل في هداية الله لهذه المخلوقات تؤكد حقيقة وجود إله خالق مبدع مدبر.

إن البعوضة حينما تضع بيضها تزود كل بيضة بكيسين لتطفو على الماء لحظة وضعها ولا تغرق وما كان من الممكن للبعوضة أن تدرك قوانين أرخميدس للطفو فتضع لبيضها تلك الأكياس لولا هداية الله لها[٢].

فمن الذي أقام مصنعاً لإنتاج تلك البيوض في جسم البعوضة وهداها إلى استعماله؟ ثم من الذي بنى مصنعاً من نوع آخر لإنتاج الأكياس المطاطية في جسمها وهداها إلى تشغيله؟ هل من خالق غير الله؟ هل من هادٍ غير الله؟.

ومن الأمثلة على الهداية في عالم الحشرات أن النمل عَرَفَ الزرع والرعي عن طريق الغريزة، فحشرات المنّ التي يطلق عليها أحياناً قمل النبات التي نراها على أوراق بعض النباتات يرعاها النمل ليستفيد منها، ففي الربيع الباكر يرسل النمل الرسل لتجمع له بيض هذا المنّ، فإذا جاؤوا به وضعوه في مستعمراتهم حيث يضعون بيوضهم، ويهتمون ببيض هذه الحشرات كما يهتمون ببيضهم، فإذا فقس بيض المنّ وخرجت منه الصغار أطعموها

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٤/٢٣٣٨.

(٢) رحلتي من الشك إلى الإيمان ص ١٥.

وأكرموها، وبعد فترة قصيرة يأخذ المنّ يدر سائلاً حلواً كالعسل ويتولى النمل حلب هذا المنّ للحصول على هذا السائل(1).

وإنها مهمة في غاية الدقة والإحكام... هذه الحشرات الصغيرة التي تؤدي واجبها خير أداء... جماعة مهمتها صيد حشرات المنّ، وجماعة ثانية مهمتها رعاية البيوض وحفظها من التلف، وأخرى ترعى البيوض بعد تفقيسها، ثم بعد ذلك حلب حشرات المنّ لإخراج السائل الحلو الذي تدره.. إنها هداية الله، وصدق موسى عليه الصلاة والسلام حين قال: ﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾.

وها هي النحلة تعيش في مُسْتَعْمراتٍ ولكل مستعمرة ملكة وذكور وعمال وجنود، ووظيفة الذكور التلقيح، ووظيفة الملكة وضع البيض، ووظيفة الجنود حماية المستعمرة، أما العمال فوظيفتهم إحضار الطعام.. وكيفية حصول النحل على الغذاء ظاهرة مذهلة، إذ لو اكتشف أحد العمال حقلاً أو كمية من النباتات فإنه يعود إلى المستعمرة ليخبر باقي العمال عن هذا الكنز الذي اكتشفه، وذلك عن طريق طقوس رقص عجيبة تفعلها النحلة بطريقة غريزية... فإذا كان الحقل الذي اكتشفه قريباً من المستعمرة فإن الرقصة في هذه الحالة تختلف في حالة بُعْدِ الحقل مسافة أطول.

ومن هذه الرقصات يعلم النحل أن حقلاً من البرسيم على بعد معين، والطريق إليه يقتضي السير بزاوية معينة بالنسبة لمكان الشمس، فيؤدي بعض العمال الرقصة نفسها، عند ذلك تطمئن النحلة التي اكتشفت الحقل في أن باقي النحل قد فهم ما تريد أن تقوله(2).

فيا لهداية الله! هل بوسع الإنسان العاقل أن يقوم بهذا العمل في لحظات معدودات كما يقوم به النحل؟ مهمات في غاية الصعوبة، المهمة

---

(1) الله أم الطبيعة؟ ص ١١ ـ ١٢.

(2) الله أم الطبيعة؟ ١٤ ـ ١٥.

الأولى إعلام النحل من الشغالات أن الغذاء قد وجد، والمهمة الثانية تحديد مكان الغذاء، والمهمة الثالثة تبيان قصر المسافة أو بعدها المهمة الرابعة تحديد الجهة التي ينبغي للشغالات أن يتوجهوا إليها. . . وبلحظات معدودات وعن طريق الرقص يؤدي النحل واجبه على أحسن صورة بهداية الله ووحيه وإلهامه.

وصدق المولى الخالق سبحانه إذ يقول: ﴿ وأوحى ربّك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾[١].

وَمَاذَا عن الذبابة وجهاز الإشارة الضوئية؟

في عام ١٩٣٥ م قام أحد العلماء الأمريكيين بدراسة ذبابة النار السوداء فوجد أنثى الذبابة تكمن في الحشيش في المساء، على حين تطير الذكور وترسل إشعاعاً ضوئياً كل $\frac{٧}{٥}$ من الثانية، وعندما ترى الأنثى تلك الإشارة الضوئية تقوم بالرد عليها بإشارة ضوئية معينة كل $\frac{١}{٢}$ من الثانية، فإذا التقط الذكر هذه الإشارة أسرع نحو الأنثى حيث تتم عملية التلقيح[٢].

فمن الذي أقام هذا الجهاز المحكم الدقيق لإرسال الإشارات الضوئية؟ وليس الأمر محصوراً في بناء هذا الجهاز وخلقه فحسب، إنما الأهم من ذلك من الذي هدى هذه الحشرة الصغيرة إلى استخدام هذا الجهاز ببث الإشارات الضوئية بهذه الصورة العجيبة؟ إنها هداية الله.

٢ ـ الهداية في عالم الحيوان:

والأمثلة على الهداية في عالم الحيوان كثيرة منها ما لاحظه بعض العلماء من ظاهرة التنظيف بين الأسماك، ففي عام ١٩٥٥ بينما كان العلماء

---

(١) النحل ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) الله أم الطبيعة؟ ص ٦٦،

على عمق عشرين قدماً تحت الماء في خليج كاليفورنيا استرعت انتباههم إحدى الأسماك الكبيرة تتهادى محركة ببطء زعانفها الصدرية، واتجهت نحو كتلة مرجانية ثم توقفت، وفتحت فمها الضخم، وفي الحال أسرعت نحوها سمكتان صغيرتان من نوع معين، وأخذتا تحومان حول السمكة الكبيرة، واختفت واحدة منهما داخل فم السمكة الكبيرة.. ولما اقتربت السمكة الصغيرة الأخرى من غطاء خياشيم السمكة الكبيرة وجدوا أن الكبيرة رفعت غطاء الخياشيم، وسمحت للصغيرة بالدخول من تلك الفتحة، وبعد برهة قصيرة أقفلت السمكة الكبيرة فمها فجأة دون أن تنطبق الشفتان تماماً، بل تركت فتحة صغيرة بين الشفتين ثم فتحت فمها مرة أخرى إلى أقصى اتساع، واعتبرت هذه الحركة بمثابة إثبات للسمكة الصغيرة التي شاهدوها تخرج من فم السمكة الكبيرة... أما الصغيرة الأخرى التي دخلت بين الخياشيم فلقد هزت السمكة الكبيرة جسمها عدة هزات فخرجت السمكة الصغيرة، وعادت السمكتان إلى الكتلة المرجانية التي خرجتا منها.

والذي حدث أن السمكتين الصغيرتين عندما دخلتا بين الخياشيم ثم هزت السمكة الكبيرة جسمها قامتا بعملية تنظيف حيث التهمت الطفيليات التي كانت في تجويف فم السمكة الكبيرة وخياشيمها، وبهذا استفاد كلا النوعين من هذه العملية حيث تخلصت الكبيرة من الطفيليات الضارة كما استفادت الصغيرتان بالتغذية على هذه الطفيليات[1].

إنه لشيء مذهل جداً لا يمكن تفسيره إلا إذا آمنا بوجود نفحة إلهية أودعها خالق الكون في هذه الحيوانات تمكنها من القيام بما يلزمها.

٣ ـ الهداية في خلق الإنسان:

وماذا عن الهداية في خلق الإنسان؟

جاء في مجلة الفيصل الطبية[2] أن الغدد الدهنية تفرز مواداً دهنية

(١) الله أم الطبيعة؟ ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) ص ٢١ عدد شعبان وشوّال ١٤٠٥ هـ.

ترطب الجلد، وتحفظه من التشقق الذي يسببه جفاف الجو الحار.

ونظرة إلى هذه الغدة الدهنية تجعلنا نرى مادة لا عقل لها ولا إدراك، ولكنها تتحرك بحركة مقصودة لتحقق هدفاً معيناً، فأما الحركة فهي إفراز المواد الدهنية، وأما الهدف فهو حفظ الجلد من التشقق، فهل يعقل بأن تقوم بهذا العمل المنظم من تلقاء نفسها؟ فلا بد إذاً من قوة هادية هدتها إلى ذلك تلك هي قوة الخالق سبحانه.

وجاء في كتاب «الطب محراب الإيمان» أنه يوجد تحت الجلد حوالي ٥ ـ ١٥ مليون مكيف لحرارة الجلد، والمكيف هنا هو الغدة العرقية، لأن تبخر العرق من الجلد يمتص معه نسبة عالية من حرارة البدن... والغدة العرقية هي أنبوب متعرج طويل لضخ سائل العرق، ومجموع أطوال أنابيب الغدة العرقية الموجودة تحت الجد حوالي ٤ ـ ٥ سم[١].

فهل سمعت في عالم الناس مكيفاً صنع نفسه بنفسه؟ ثم وضع بنفسه ولنفسه وظيفة محددة يؤديها لخدمة الناس؟.

فكيف يعقل أن تكون هذه المكيفات من الغدد العرقية هي التي تقوم بهذه المهمة دون أن تكون هناك يد أبدعتها وهدتها إلى ذلك؟ ليس الأمر كذلك، فلا بد من قوة هادية، ألا إنها هداية الله.

وتأمل في خلق الله للكبد لتدرك هداية الله له للقيام بوظائفه، يقول الدكتور خالص جلبي في حديثه عن الكبد ووظائفه:

«الكبد يزن ١٥٠٠ غرام، وفيه ٣٠٠ مليار خلية يمكن أن تتجدد في أربعة أشهر بكاملها... ويقوم كسد أمام نفوذ أي سم إلى البدن ما لم يتغلب على الخلايا الكبدية ويدمرها.. ومن جملة طرائف الكبد في التخلص من السموم منها ما هو بسيط في ضرب الحصار حوله أو إتلافه، ومنها ما هو إيثاقه

---

(١) الطب محراب الإيمان ٢/٣٠٣.

كإيثاق المجرمين، ثم تنقل المادة السامة إلى القناة الصفراوية حيث تطرح في الأمعاء لتلقىٰ خارج الجسم[1].

فيا لخلق الله وإبداعه وهدايته! عضلة لحمية تميز بين ما هو ضار لجسم الإنسان ونافع، حتى إذا تأكدت أن المواد التي دخلت الجسم من المواد الضارة السامة تحركت حركة هادفة واعية فأحاطتها وأتلفتها... أو أخرجت قيودها وسلاسلها فقيدت بها تلك المواد ثم حولتها إلى القناة الصفراوية.. أيحدث ذلك دون هداية؟.

صدق الله تعالى حينما قال على لسان موسى عليه الصلاة والسلام:

﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾.

* * *

(١) المرجع السابق ٢/١٧٧.

ثالثاً: البحث العلمي يدعو إلى الإيمان:

١ ـ هل هناك نزاع بين الدين والعلم؟

وللإجابة على هذا السؤال لا بد من تعريف الدين والعلم، فالدين في التعريف الإسلامي انقياد لله وفق قوانينه الكونية بالأسلوب الذي يشرعه الله، سواء على مستوى العبادات الفردية أو المعاملات الجماعية.

أما العلم فهو منهج للتفكير في منطقة قابلة للبحث (الطبيعة) بغية استخلاص القوانين الكونية وما يتبعها من جزئيات تفسر هذا الكون، وتسخره للإرادة الإنسانية[١].

وعلى ضوء هذا التعريف فإنه يتبين لنا أنه لا نزاع بين الدين الإسلامي والعلم كما يدعي ذلك بعض الذين تأثروا بالغزو الفكري حين فصلوا بين الدين والحياة، ورفعوا شعار لا صلة للدين بالعلم، لا صلة للدين بالدولة، لا صلة للدين بحياة الناس وسلوكياتهم ومعاملاتهم، «دع ما لله لله، ودع ما لقيصر لقيصر».

وهذا القول إنما يصح إذا كان المقصود بالدين هنا الدين المسيحي، فقد وقع الصراع حقاً بين رجال الكنيسة المسيحية ورجال العلم في المجتمعات الغربية في القرون السالفة، فيما كانت الكنيسة المسيحية تصف العلماء بالكفر والردة، وتزج بعضهم في غياهب السجون وتأمر بحرق بعضهم الآخر، لأنها كانت تسيطر يومئذٍ على الحياة في مختلف جوانبها السياسية ـ والدينية والعلمية.

فعندما جاء كوبرنيق عام ١٥٤٣ بنظرية علمية أثبت فيها حركة الأرض، تحرك رجال الكنيسة فمنعوا تداول كتابه «حركات الأجرام السماوية»، وأوقعوه في قبضة محاكم التفتيش، والسبب في هذا الموقف العدائي لنظرية كوبرنيق

---

(١) لا نزاع بين الدين والعلم ص ٩ ـ ١٠.

أن الكنيسة كانت تعتنق نظرية بطليموس التي تجعل الأرض مركز الكون[1].

وعندما جاء (جردانو برونو) وأثبت صحة نظرية كوبرنيق شن رجال الدين المسيحي هجوماً عنيفاً عليه، فقبضت عليه محاكم التفتيش، وزجت به في السجن ست سنوات، فلما أصر على رأيه أحرقته سنة ١٦٠٠، وذرت رماده في الهواء، وجعلته عبرة لمن يعتبر[2].

بل نجد الكنيسة تقاوم كل محاولة للتجديد وإن كانت نافعة خيرة، فعندما اخترع رئيس بلدية إحدى المدن الألمانية غاز الاستصباح كفَّرته الكنيسة بحجة أن الله خلق الليل ليلاً والنهار نهاراً، وهو باختراعه يريد تغيير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهاراً.

٢ ـ دعوة الإسلام إلى العلم والتبصر:

ومما يؤكد الالتحام بين الدين الإسلامي والعلم على مختلف أشكاله وصوره وأنواعه أن القرآن الكريم في آيات كثيرة أشاد بالعلم والعلماء، من ذلك قوله تعالى: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء[4]﴾، وقوله سبحانه: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[5].

كما أن القرآن الكريم دعا إلى التبصر بحقيقة وجود الإنسان وارتباطاته الكونية عن طريق النظر الحسّي، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فلينظر الإنسان إلى

---

(١) العلمانية نشأتها وتطورها ص ١٥٠.

(٢) العلمانية نشأتها وتطورها ص ١٥٠.

(٣) آل عمران ١٨.

(٤) فاطر ٢٨.

(٥) الزمر ٩.

طعامه، أنا صببنا الماء صبّاً، ثم شققنا الأرض شقّاً، فأنبتنا فيها حبّاً وعنباً وقضبا، وزيتوناً ونخلاً ﴾[1] ودعاه إلى النظر في خلقه ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾[2]. ودعا كذلك إلى النظر في ملكوت السموات والأرض ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ﴾[3].

وأعطى الله للحواس مسؤولياتها عن كل خطوة يخطوها المسلم في مجال البحث والمعرفة فقال سبحانه: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾[4].

بل إن الإسلام جاء منذ آياته الأولى يعلن ميلاد عصر العلم في الجزيرة العربية حيث الجهل والخرافة والأساطيرة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾[5]، وحسبنا أن نشير إلى أن كلمة (علم) بتصرفاتها المختلفة قد وردت في القرآن الكريم في أكثر من سبعمائة وخمسين آية[6].

٣ ـ حضارتنا الإسلامية والالتحام بين العقيدة والعلم:

إن حضارتنا الإسلامية طوال عهودها التاريخية السالفة لم تفصل بين العقيدة الإسلامية والعلم، فلقد كانت المدارس والمعاهد العليا تملأ العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه... وكانت نظامية بغداد[7] أول المدارس وأهمها، درس فيها مشاهير علماء المسلمين بين القرن الخامس والتاسع الهجري فقد بلغ عدد طلابها ستة آلاف تلميذ، وكلهم يتعلمون بالمجان في مختلف العلوم الشرعية والدنيوية.

---

(١) عبس ٢٤ ـ ٢٩.
(٢) الطارق ٥.
(٣) الأعراف ١٨٥.
(٤) الإسراء ٣٦.
(٥) العلق ١.
(٦) لا نزاع بين الدين والعلم ص ١٨.
(٧) من روائع حضارتنا ص ١٣٤.

وكانت المدارس متعددة الغايات، فهناك مدارس للقرآن، ومدارس للحديث، ومدارس للطب، ومدارس للكيمياء... يقول النعيمي في كتابه: «الدارس في تاريخ المدارس» وهو من علماء القرن العاشر الهجري، يذكر شيئاً بأسماء مدارس دمشق: فللقرآن الكريم سبع مدارس، وللحديث ست عشرة مدرسة وللفقه الشافعي ثلاث وستون مدرسة.. هذا سوى مدارس الطب والفنادق... كلها كانت مدارس يتعلم فيها الناس[1].

ويقول ابن كثير في حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة:

(فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، وقفت على المذاهب الأربعة ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب[2].

وكان علماؤنا في العصور الوسطى يوم كانت الكنيسة المسيحية تكفّر علماء الغرب وتأمر بحرقهم كانوا يضعون أسس المنهج التجريبي للعلوم الهندسية والطبية والفلكية والكيميائية والرياضية فابن النفيس لم تمنعه عقيدته الإسلامية أن يتخصص في علم الطب ويكتشف الدورة الدموية الصغرى[3] وجابر بن حيان لم يمنعه تمسكه بدينه الإسلامي أن يتخصص في علم الكيمياء، ويكتشف الصودا الكاوية وحامض الكبريتيك، والحسن بن الهيثم مع التزامه بالإسلام عقيدة وعبادة وشريعة اكتشف علم البصريات، والإدريسي حينما أثبت كروية الأرض لم يصفه العلماء المسلمون بالكفر أو الردة أو أمروا بحرقه.

وكان الطلبة من البلاد الغربية يفدون إلى الجامعات الإسلامية في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا لتلقي العلوم التطبيقية، على حين كانت تلك

---

(١) من روائع حضارتنا ص ١٣٦.
(٢) المرجع السابق ص ١٣٧.
(٣) لا نزاع بين الدين والعلم ص ١٩ - ٢٠.

البلاد الغربية تسودها الخرافات والأوهام والأساطير، ولما رأى رجال الكنيسة إقبال الغربيين على الجامعات الإسلامية ثارت ثائرتهم فأعلنت حالة الطوارىء ضدهم، وشكلت محاكم التفتيش في كل مكان تتصيدهم وتذيقهم صنوف الأذى والعذاب[1] ولقد شهد علماء الغرب بفضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية، فهذا العالم (برتيلو) يقول عن جابر بن حيان:

«إن اسم جابر بن حيان من تاريخ الكيمياء منزل منزلة اسم أرسطو طاليس في تاريخ المنطق، فهو أول من وضع لعلم الكيمياء قواعد علمية تقترن باسمه في تاريخ الدنيا[2].

ويقول سخاو عن البيروني:

«إن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ».

وتقول الدكتورة (شوار تزهت) وزيرة صحة ألمانية الاتحادية في المؤتمر الصيدلي الذي أقيم في القاهرة سنة ١٩٦٢.

«إن الغرب لن ينسى أنه مدين للعرب بدراسة الطب، وأن مؤلفات ابن سينا والرازي كانت هي الكتب الوحيدة التي تدرس في جامعة (بالرمو) التي تضم أشهر مدرسة للطب في العالم الغربي[4].

٤ ـ نماذج من أقوال العلماء الغربيين في إثبات وجود الله الخالق:

أ ـ فرانك ألن واحتمالات تفسير وجود الكون:

جاء في المقالة الأولى من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) تحت

(١) العلمانية نشأتها وتطورها ص ١٤٩.
(٢) فضل الحضارة الإسلامية على العالم ص ٤٤٩.
(٣) المرجع السابق ص ٤٧١ ـ ٤٧٢.
(٤) فضل الحضارة الإسلامية على العالم ص ٤٣٤.

عنوان نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟ كتبها فرانك ألن عالم الطبيعة البيولوجية.

«إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته؟.

هناك احتمالات أربعة للإجابة على هذا السؤال:

١ ـ فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهذا يتعارض مع ما سلمنا به من أنه موجود.

٢ ـ وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وهذا مرفوض بداهة.

٣ ـ وإما أن يكون هذا الكون أزلي الوجود وليس لنشأته بداية، وهذا الاحتمال يساوي ما يقوله المؤمنون بالنسبة لأزلية الخالق، لكن قوانين الكون تدل على أن أصله وأساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذن حدث من الأحداث، ولهذا فهذا الاحتمال باطل أيضاً.

٤ ـ وإما أن يكون لهذا الكون خالق أزلي أبدعه، وهو الاحتمال الذي تقبله العقول دون اعتراض فوجب الاعتماد عليه.

ولو أننا طبقنا هذه الاحتمالات التي ذكرها (فرانك ألن) على أي شيء من صنع البشر لوجدنا صحة ما ذهب إليه، انظر مثلاً إلى القلم الذي في يدك، إنه موجود ولكي نفسر وجوده لا بد من افتراض الاحتمالات الأربعة:

١ ـ إما أن يكون القلم وهماً وخيالاً، وهذا باطل لأنه موجود.

٢ ـ وإما أن يكون القلم قد صنع نفسه بنفسه، وهذا باطل أيضاً لا يعتقد به عاقل.

٣ ـ وإما أن يكون القلم قد وجد منذ الأزل، وهذا باطل كذلك، لأن للقلم

---

(١) الثقافة الإسلامية (١٠١) ص ٣٠ ـ ٣١.

زمناً قد وجد فيه، ومعنى هذا أنه حدث.

٤ ـ وإما أن يكون للقلم صانع قد صنعه، وهذا ما تعتقد به العقول.

ب ـ السير جيمس جينز وحقيقة الخشية:

يقول الدكتور عناية الله المشرقي وهو من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية:

«خرجت في أحد الأيام من عام ١٩٠٩، وكانت السماء يومها تمطر بغزارة، فإذا بي أرى العالم الفلكي المشهور السير (جيمس جينز) الأستاذ بجامعة كمبردج.. فذهبت إليه، ودار بيني وبينه حوار في بعض الشؤون، أدى ذلك الحديث إلى أن دعاني لزيارته في بيته، وعندما وصلت إلى داره في المساء أخبرني بأنه ينتظرني، وعندما دخلت عليه في غرفته وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعاً عليها أدوات الشاي، وكان البروفسور منهمكاً في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني ماذا كان سؤالك؟ ودون أن ينتظر ردي بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها ومداراتها وجاذبيتها، حتى أنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله، أما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعشان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول:

«يا عناية الله عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي» يقول عناية الله المشرقي: فقلت له: لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي وتذكرت بهذه المناسبة آية من كتاب الله المقدس، فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم، فهز رأسه وقال بكل سرور، فقرأت عليه الآية الكريمة ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾[1] فصرخ السير جيمس ماذا قلت؟ ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ؟﴾ مدهش وغريب وعجيب جداً، هذا الأمر الذي كشفت عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة،

---

(١) فاطر ٢٨.

من أنبأ محمداً بـه؟ هل هـذه الآية مـوجودة في القـرآن حقيقة؟ لـو كان الأمـر كذلك فاكتب شهادة عني: إن القـرآن من عند الله... لقـد كان محمـد أمياً، ولا يمكنـه أن يكشف عن هذا السـر بنفسـه، لكن الله هـو الـذي أخبـره بهـذا السر.. مدهش وغريب وعجيب جداً[1].

ت ـ هرشل يثبت وجود الله بالبحث العلمي:

يقول العالم الغربي هرشل:

«كلما اتسع نطاق العلم، ازدادت البراهين الـدامغة القـوية على وجـود خالق أزلي لا حد لقدرته ولا نهاية.. فالجيولوجيون، والرياضيون والطبيعيـون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم، وهو صرع عظمة الله وحده[2].

ولعـل سـائـلاً يسـأل: ولكن لمـاذا نجـد علمـاء متخصصين في العلوم التـطبيقية من هنـدسية إلى فيـزيائيـة إلى رياضيـة إلى فلكية.. ومـع ذلك فهم ملاحدة ينكرون وجود الله تعالى؟.

وللإجابة على السؤال أقول: إن هناك أسباباً كثيرة تؤدي إلى إلحاد هؤلاء العلمـاء وثباتهم عليـه، ورفضهم للحق وإن كانـوا في كثير من الأحيـان يرونـه بأبصارهم، ومن هذه الأسباب:

١ ـ فساد فطرتهم، لأنهم نشـأوا في أحضان أسـرة، أو في ظل بيئـة اجتماعيـة تحمـل عقيـدة الإلحـاد، وتـدعـو إليـه، وتنشىء أبنـاء المجتمـع عليـه، ورسول الله ﷺ يبين أن هؤلاء الملاحـدة كانـوا يحملون في نفوسهم فـطرة الله الصـافية المستقيمـة من يوم أن خلقهم ونـزلوا إلى سـطح هـذه الكـرة الأرضية، ولكن هذه الفطرة أصابها التغيير والتزييف والتبديل، «كل مـولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

٢ ـ إن العالم أياً كان تخصصه العلمي إذا تجاوز ظاهر المادة، وبدأ يبحث عن

---

(١) مع التوحيد والأخلاق ص ٨ ـ ٩ ـ ١٠.

(٢) مسلون وكفى ص ٥١ ـ ٨٠.

تفسير لها وتعليل فإنـه حتماً سيصـل إلى الإيمان بـالوجـود الحق، «أما إذا حجـز نفسه في حـدود ظواهـر المادة فقط، ومنـع فكـرهُ من أن يجـول في التفسير والتعليل والغاية فإننا قد لا نرى في نفسـه أثراً للتـأملات الكبـرى، لكن نشهد شهادة حق أنه عطل فكـرهُ، ورضي لنفسه بـالجهل الكـامل من هذه الناحية، معرضاً عن الحقيقة، مستهيناً بأمرها»[١].

٣ ـ وقد يرى هؤلاء العلمـاء من الملاحـدة الحق فينصرفـون عنه بـدافع الكبـر والغرور، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا بقوله سبحانه: ﴿ إن الكـافرون إلا في غرور ﴾[٢]، فهؤلاء الملاحدة أصابهم الغرور بمتاع الحياة الدنيـا، ومن ثم أخذتهم العزة بالإلحاد والكفـر والطغيـان وخدعـوا بما خـدعوا بـه أنفسهم من أفكار مزينة، وأهواء مزينة، وشهوات مزينـة، وأقوال مـزخرفـة مـزينة، وصـدق المـولى سبحـانـه: ﴿ زين للذين كفـروا الحيـاة الـدنيـا، ويسخرون من الذين أمنوا ﴾[٣].

٤ ـ وقد يكون سبب انصراف هؤلاء عن الحق، وتماديهم في غيهم وإلحـادهم اتبـاعهم للشهـوات والأهـواء والـظنـون، وتقليـدهم لقـادة الإلحـاد ودعاة البـاطل، فـالعقائـد الإلحاديـة الجاهليـة مهما اختلفت صـورها وأشكـالهـا أصحابها دعـاة هوى، واتبـاع ظن، يقول الله تعـالى: ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنـزل الله بها من سلطان، إن يتبعـون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾[٤].

والانحـراف العقائـدي في بعض الأحيان قـد يكون بسبب اتبـاع القـادة المضلين ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيـات ربـهم، وعصوا رسله، واتبعوا أمـر كل جبار عنيد ﴾[٥].

* * *

---

(١) الثقافة الإسلامية (١٠١) ص ٣٧.

(٢) الملك ٢٠.

(٣) البقرة ٢١٢.

(٤) النجم ٢٣.

(٥) هود ٥٩.

رابعاً: دليل الإتقان في خلق الكون:

١ ـ شبهة القول بأن الصدفة وراء خلق هذا الكون:

يدعي بعض أصحاب العقائد الإلحادية بأن الكون كله بسمائه وأرضه وجباله ووديانه، وإنسه وحيوانه، ومجراته ونجومه قد وجد صدفة دون أن يكون هناك سابق تصميم وإرادة ومشيئة من قبل قوة خالقة هي السبب في نشأة هذا الكون وخلقه.

وتفسير وجود الكون وخلقه بالصدفة تفسير باطل لا يعتقد به من عنده ذرة من عقل أو تفكير أو تبصر.

فالصدفة لا مكان لها في حياتنا البشرية... وإليك بعض الأمثلة:

- لو قلنا إن المملكة العربية السعودية أخذت موقعها الجغرافي الحالي من قارة آسيا صدفة وأن مدينة جدة التي نحن فيها تشكلت عماراتها وشوارعها وأحياؤها ومؤسساتها ومصانعها ومطاراتها صدفة.. وإن الجامعة التي هي جزء من مدينة جدة هي الأخرى وجدت على هذه الصورة من التخطيط والتنظيم صدفة.. وإن المبنى رقم «٤٠» الذي هو جزء من الجامعة قد وجد صدفة.. ثم إن الغرفة «٢٠٨» التي نحن فيها وهي جزء من المبنى «٤٠» قد وجدت أيضاً عن طريق الصدفة.. ونحن كذلك في داخل هذه الغرفة قد وجدنا صدفة فأي عاقل يصدق هذا الكلام الباطل؟.
- لو جئنا بقرد يعيش في بعض المجتمعات العربية ووضعناه أمام آلة كاتبة حروفها عربية، ثم طلبنا من هذا القرد أن يبدأ بالضرب على تلك الآلة الكاتبة فأخذ يحرك أصابعه حركات عشوائية ذات اليمين وذات الشمال، فأخذ يضرب ويضرب فترة زمنية طويلة حتى استطاع صدفة أن ينظم لنا معلقة شعرية تصل في مستواها البلاغي والبياني واللغوي إلى مستوى معلقة امرىء القيس أو طرفة بن العبد.

فأي عاقل يصدق هذا القول الباطل؟.

● لـو أن قائـلاً قال: إن طـائرة من طـائـرات الكـونكـورد وجـدت في إحـدى مطارات فرنسا على صورتها الهندسيـة البديعـة عن طريق الصـدفة دون أن تكون عقول وراء صنع هذا النوع من الطائرات المتقدمة، فمن يصدق هذا الهراء؟.

وقد أنكر كثير من العلماء القـول بأن الكـون قد خلق صـدفة ومن هؤلاء (جون كوثران) من علماء الكيمياء والرياضيات، من ذلك قوله:

«فهـل يتصور عـاقل أو مفكـر أو يعتقد أن المـادة المجردة من العقـل أو الحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض الصدفـة؟ أو أنها هي التي أوجـدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها[1]؟.

وقال (بول أبرسولـد) مديـر قسم الطاقـة الذريـة في معامـل أوج ريدج، وعضو جمعية الأبحاث النووية:

«قـد لمس الناس أن هنـاك قوة فكـرية هـائلة، ونظامـاً معجـزاً في هـذا الكون يفوق ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة أو الحوادث العشوائية التي تظهر أحياناً بين الأشياء غير الحيـة.. ولا شك أن اتجـاه الإنسان وتـطلعه إلى البحث عن عقل أكبر من عقله، وتدبير أحكم من تـدبيره وأوسـع لكي يستعين به على تفسير هذا الكون يعد في ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر وتدبير أعـظم، هي قوة الله وتدبيره»[2].

٢ ـ الاتقان في خلق الكون:

إن الاتقان في خلق هذا الكون لدليـل من الأدلـة العـظيمة على وجـود الله سبحـانه، فنـظرة إلى ما في الأرض ومـا بث الله فيها من دابـة، وتأمـلٌ في خلق السموات وما فيهـا من مجرات ونجـوم ليؤكد حقيقـة الاتقان في خلق الله في هذا الكون العظيم، وإليك بعض الأمثلة:

---

(١) الثقافة الإسلامية (١٠١) ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق ص ٣٧.

أ ـ الاتقان في خلق الحشرات :

يقول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾[1].

«وهي حقيقة هائلة.. حقيقة تجمع الحيوان والطير والحشرات ومن حولهم في أمم لها سماتها وخصائصها وتنظيماتها كذلك... وهي الحقيقة التي تتسع مساحة رؤيتها كلما تقدم علم البشر، ولكن علمهم لا يزيد شيئاً على أصلها»[2].

وهذه بعض الشواهد على الاتقان في خلق الحشرات:

- وجد العلماء المتخصصون في علم الحشرات أن النمل الأبيض يتغذى على الخشب. فأخذتهم الحيرة لأن الخشب لا يحتوي على أية مادة غذائية ثم اكتشفوا بعد ذلك أن في داخل الجهاز الهضمي للنمل الأبيض حيوانات دقيقة يتكون جسمها من خلية واحدة، وتقوم هذه الحيوانات بتحويل الخشب إلى مادة غذائية عن طريق إفرازات معينة تفرزها من جسمها، ولو لم تكن هذه الحيوانات موجودة في جسم النمل الأبيض لما استطاعت هذه الحشرة أن تستمر في الحياة فهل يمكن تفسير وجود تلك الحيوانات ذات الخلية الواحدة في الجهاز الهضمي لهذه الحشرة عن طريق الصدفة؟ هل يمكن أن نفسر إفراز تلك الحيوانات إفرازات تحول بها الخشب إلى مادة غذائية عن طريق الصدفة[3]؟.
- وجاء في كتاب «لغز الحياة»[4]: «إن الحشرة التي يسمونها في عالم الحشرات (قاذفة القنابل) إذا جاء حيوان مفترس وفتح فمه ليلتهمها ضغطت

---

(١) الأنعام ٣٨.
(٢) في ظلال القرآن جـ ٢/ ١٠٨٤.
(٣) الله أم الطبيعة؟ ص ١٨.
(٤) للدكتور مصطفى محمود.

على كيس في بطنها فامتزجت في لحظة إفرازات ثلاث غدد، يؤدي اختلاط الثلاثة إلى تفاعل شديد، وخروج غاز كريه الرائحة فيفر الحيوان المفترس رعباً[1].

هذا الاتقان البديع في حماية هذه الحشرة نفسها من الحيوانات المفترسة ليدل دلالة قاطعة على وجود إله خالق مبدع متقن لخلقه، إذ لا يعقل أن الكيس قد وجد في أسفل بطنها صدفة، وأن الغدد الثلاثة التي تفرز مواداً كيميائية مختلفة وجدت هي الأخرى صدفة؟ ثم تم إنتاج ذلك الخليط الكيميائي عن طريق الصدفة كذلك؟.

ب ـ الاتقان في خلق الإنسان:

لقد دعانا الله سبحانه وتعالى إلى التأمل في خلق الإنسان، والتبصر في نفسه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[2]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ قتل الإنسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره ﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿ ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين؟ ﴾[4]، ولو لم يكن في هذا الوجود خلق إلا خلق الإنسان، لكان هذا الخلق آية ناطقة وشاهدة على وجود الخالق سبحانه.

- يقول الدكتور مصطفى محمود وهو يتحدث عن الاتقان في خلق الإنسان[5]:

«كل عنصر له في دم الإنسان نسبة ومقدار... الصوديوم، البوتاسيوم، الكالسيوم، السكر، الكولسترول، البولينا.. وأي اختلال في

---

(١) نقلاً عن كتاب تبسيط العقائد الإسلامية.

(٢) الذاريات ٢١.

(٣) عبس ١٧ ـ ١٩.

(٤) البلد ٨ ـ ٩.

(٥) رحلتي من الشك إلى الإيمان ص ٨٥ ـ ٨٦.

هذه النسب ولو بمقادير ضئيلة يكون معناه المرض، ودرجة الحرارة المكيفة دائماً عند ٣٧° مئوية.. وكذلك ضغط الدم، ونبض القلب ونظام الاحتراق الكيميائي في فرن الكبد.. ولن تنتهي الأمثلة، ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾.

● وتحدث العلماء عن الاتصالات التي تتم في داخل جسم الإنسان عن طريق الأسلاك التي تتصل بالخلايا العصبية في المخ، وذكروا جملة من الحقائق العلمية التي يقف العقل أمامها مدهوشاً، من ذلك قولهم:

إن مركز نظام المواصلات مخ الإنسان، فيه ألف مليون خلية عصبية ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر في سائر الجسم، وتسمى هذه الأسلاك الأنسجة العصبية، وفي هذه الأنسجة يجري استقبالُ وإرسال للأخبار بسرعة سبعين ميلاً في الساعة.

وقالوا: إن هناك ثلاثة آلاف شعيرة عصبية، ولكل منها سلك خاص متصل بالمخ، وبواسطة هذه الشعيرات تحس بالمذاقات.

وفي الأذن توجد عشرة آلاف خلية سمعية بواسطتها يحدث السمع، وفي كل عين ١٣٠ مليون خلية لاقطة للضوء، تقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ(١).

فهل يمكن القول بأن آلاف الملايين من الخلايا في داخل جسم الإنسان قد وجدت مصادفة؟ هل يمكن القول بأن هذا التوزيع الدقيق للخلايا العصبية في الأنف واللسان والأذن والعين قد وجدت هكذا بطريقة اعتباطية عشوائية؟. إن بضع خطوط هاتفية تعمل في قرية من القرى وراء تشغيلها وصيانتها وإدارتها فضلاً عن إنتاجها واختراعها وتصديرها عشرات العقول، فما

---

(١) مع التوحيد والأخلاق ص ١٦ ـ ١٧

بالك بهذه الملايين من الخطوط الهاتفية في داخل أجسامنا؟.

وماذا عن مضخة القلب والإتقان في صنعها؟

إن القلب يضخ في المتوسط سبعين ضخة، ولو أن رجلاً عاش سبعين سنة فإن ذلك يعني أن قلبه قد دق أو بالأحرى ضخ ٢٥٩٠ مليون مرة في اتصال عجيب عبر هذا الزمان الطويل.

فأي سر إلهي عظيم اشتملت عليه هذه المضخة القلبية والتي تعجز آلات في حجم الجبال أن تقوم بها؟.

انظر بعين العقل والبصيرة إلى هذا المريض الأمريكي (وليم شرايدر) الذي يحمل في صدره قلباً صناعياً، فهل تستطيع تفسير وجود هذا القلب الصناعي بالصدفة؟.

إن وراء هذا عشرات من العلماء المتخصصين في ألوان مختلفة من العلوم، ففريق مهمته إنتاج هذا القلب الصناعي، وفريق آخر مهمته زرع ذلك القلب في جسم المريض، وفريق ثالث مهمته صيانة ذلك القلب ومتابعة عمله بعد إجراء العملية الجراحية ومع هذا لا يدعي عاقل أن هذا القلب الصناعي الواحد قد وجد صدفة في صدر (وليم شرايدر). فما بالك بهذه الملايين من القلوب الطُبيعية التي هي من صنع الله وخلقه واتقانه، أيمكن تفسير وجودها بالصدفة؟ فسبحان الذي اتقن كل شيء صنعه!.

جـ ـ الاتقان في خلق الأرض والسموات:

إن خلق الأرض لآية عظيمة تدل على وجود الخالق المدبر المتقن لخلقه، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾[1]، ونظرة إلى نظام الضوابط والموازنات في خلق الأرض تجعلنا

---

(١) الذاريات ٢٠.

نـدرك معنى قولـه تعالى: ﴿ وخلق كـل شيء فقدره تقـديراً ﴾[1] وإليـك أمثلة على التقدير:

ـ لو كانت الإلكترونات ملتصقة بالبروتونـات داخل الـذرة، والذرات ملتصقـة بعضها ببعض بحيث تنعدم الفراغات لكانت الكرة الأرضية بحجم البيضة، فأين يمكن أن يكون الإنسان وغيره[2]؟.

ـ لو كانت الكرة الأرضية أصغـر حجماً ممـا هي لضعفت جاذبيتهـا، ولأفلت الهواء من جوها، وتبعثر في الفضاء، ولتبخر الماء وتبدد ولأصبحت جـرداء مثل القمر لا ماء ولا هواء ولا جو ولاستحالت الحياة[3].

ـ لو أنها دارت حول نفسها بسرعة أقل كسرعة القمر مثلاً لاستطال النهار إلى ١٤ يـوم والليل إلى ١٤ ليلة، ولتقلب الجـو من حر مهلك بـطول أسبوعين إلى صقيع قاتل بطول أسبوعين، ولأصبحت الحياة مستحيلة[4].

ـ لـو كانت قشـرة الأرض أسمك ممـا هي بمقدار بضعـة أقدام لامتص ثـاني أوكسيد الكربون الأوكسجين ولما أمكن وجود حياة النبات[5].

ـ لو كانت الأرض لا تدور حول نفسهـا في مواجهـة الشمس ما تعـاقب الليل والنهار[6].

ـ لولا دوران الأرض حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها[7].

---

(١)
(٢) الله جل جلاله ـ سعيد حوى ص ٣٩.
(٣) الله جل جلاله ـ سعيد حوى ص ٣٩.
(٤) رحلتي من الشك لى الإيمان ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٥) في ظلال القرآن جـ / ٣٠٩٢/٥.
(٦) المرجع السابق.
(٧) المرجع السابق جـ ٣٠٩٢/٥.

وعن الاتقان في خلق السموات يقول الله تعالى: ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[١].

إن السموات والأرض معروضتان للإنسان يراهما، ويستطيع أن يقيس نفسه إليهما، ولكنه حين يعلم حقيقة النسب والأبعاد، وحقيقة الأحجام والقوى يطامن من كبريائه، ويتصاغر ويتضاءل حتى ليكاد يذوب من الشعور بالضآلة.. ولمحة خاطفة عن حقيقة تلك النسب في السموات تكفي لهذا الإدراك[٢].

وإليك أمثلة على الاتقان في خلق السموات:

- لو ابتعد القمر عنا «٢٠,٠٠٠» ألف ميل بدلاً من بعده الحالي لكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأرض تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفسها[٣].

- لو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ في المائة أو أكثر في الهواء بدلاً من ٢١ في المائة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر[٤].

- يقول السير (جيمس جينز) في كتابه: (الكون الغامض) وهو يشير إلى عدد النجوم: «لو أن إنساناً عد النجوم بسرعة ١٥٠٠ نجم في الدقيقة مدة ثماني ساعات في كل يوم لاستغرق عد النجوم ٧٠٠ سنة»[٥].

وعلماء الفلك يقولون: إن مجرات النجوم يتداخل بعضها في بعض،

---

(١) المؤمن ٥٧.
(٢) في ظلال القرآن جـ ٥/٣٠٩٢.
(٣) الله جل جلاله ص ٣٨ ـ ٣٩.
(٤) في ظلال القرآن جـ ٥/٢٥٤٩.
(٥) مع التوحيد والأخلاق ص ٢٤.

فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة في مجرة أخرى مثلها، وتتحرك سياراتها هي الأخرى ثم تخرج كل مجرة بسياراتها دون أن يحدث أي تصادم بين سيارات المجرتين[1].

فسبحان من خلق فأبدع خلقه وأتقنه، وتبارك من بيده ملكوت السموات والأرض وهو على كل شيءٍ قدير.

وصدق الشاعر حين أشار إلى بديع صنع الله فقال:

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري — حتى أريك بديع صنع الباري
الأرض حولك والسماء اهتزتا — لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة في خلقه — تمحو أثيم الشك والإنكار

* * *

(١) المرجع السابق ص ٢٤.



المبحث الثاني
منهج القرآن الكريم في إثبات حقيقة وجود الله

١ ـ القرآن الكريم هو نبع التلقي عند الصحابة[١]:

إن الذي يلفت نظر الباحث أن الصحابة رضوان الله عليهم استقوا عقيدتهم وخاصة فيما يتصل بوجود الله وذاته وصفاته وأسمائه من نبع واحد هو نبع القرآن الكريم، ولم يكن هذا عن افتقار في الحضارات والثقافات والعلوم، كلا فقد كانت هناك الحضارة الفارسية وأشعارها وأساطيرها وقوانينها، والحضارة الرومانية وقوانينها ومعارفها، والحضارة الإغريقية ومنطقها وفلسفتها.. ومعنى هذا أن هناك منهجاً محدداً ومرسوماً في تلقي العقيدة يتضح هذا المنهج عندما رأى رسول الله ﷺ في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة من توراة يقرأ فيها فقال:

«إنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني».

٢ ـ ميزات المنهج القرآني:

ويتميز المنهج القرآني في تناوله لحقيقة وجود الله بميزات أهمها:

أ ـ مخاطبة الفطرة:

فالقرآن الكريم لم يتناول قضية العقيدة في صورة جدل كلامي أو

---

(١) انظر مفصلاً في كتاب (معالم في الطريق) ص ١٦ ـ ١٧.

فلسفي، وإنما كان يخاطب فطرة الإنسان بما في وجوده هو، وبما في الوجود حوله من دلائل.. كان يستنقذ فطرته من الركام، ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها، وعطل وظائفها، ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة ويستجيب لها[١].

ب ـ الدعوة إلى التفكير في آيات الله في الكون:

ومما يتميز به المنهج القرآني في تناوله لحقيقة وجود الله تعالى أنه يدعو الناس إلى التفكير والتدبير والتبصر في آيات الله المبثوثة في صفحة الكون، «هذه الخياة المنبثة هنا وهناك.. هذا الماء الهاطل، وهذا البرعم النامي هذا الحب المتراكب، هذا النجم الثاقب هذا الصبح البازغ، هذا الليل السادل، هذا الفلك الدوار.. هذا كله من وراءه[٢]؟.

جـ ـ البعد عن الأسلوب الفلسفي:

إن العقيدة الإسلامية لها مزايا عظيمة كثيرة[٣] منها أنها عقيدة واضحة وهي عقيدة الفطرة فهي ليست غريبة عنها ولا مناقضة لها.. ولهذا فإن القرآن الكريم حينما عالج قضية وجود الله لم يعالجها معالجة فلسفية عقلية جافة كما حدث في العصور التالية، فالفلسفة ستزيد هذه الحقيقة حقيقة وجود الله وذاته وأسمائه وصفاته تعقيداً وغموضاً، وهذا ما شهد به الفلاسفة المسلون أنفسهم الذين اشتغلوا بعلم الكلام، فهذا أبو حامد الغزالي يقول: «أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام»[٤]. وكان ابن واصل الحموي يقول:

«أستلقي على قفاي وأَضَعُ الملحفة على نصف وجهي ثم أذكر المقالات وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر لم

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٢/ ١٠١١ ـ ١٠١٢.

(٢) في ظلال القرآن جـ ٢/١٠١٧.

(٣) أنظر الإيمان والحياة ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٤) نقض المنطق ص ٢٥.

يترجح عندي شيء»[1].

وهذه دعوة صادقة من الفخر الرازي إلى نبذ الأساليب الفلسفية في معاجلة قضية العقيدة فيقول:

«لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي غليلاً، ولا تروي عليلاً ورأيت أقرب طريقة القرآن»[2].

٣ ـ صور من حياة السلف الصالح في إثبات وجود الله:

وإليك صوراً من حياة السلف في منهجهم الذي اتبعوه في حوارهم للزنادقة والملاحدة في عصرهم.

- دخل على أبي حنيفة جماعة من الدهريين، وهموا بقتله، فقال لهم:

أجيبوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا: هات، فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم: إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة من الأثقال، وقد احتوتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها، هل يجوز ذلك في العقل؟ قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل، فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجرٍ فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أطوالها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ؟ فبكوا جميعاً وقالوا: صدقت، وأغمدوا سيوفهم وتابوا[3].

بهذا الأسلوب الواضح استطاع الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه أن يأخذ بأيدي هؤلاء الزنادقة، ويعيدهم إلى شاطىء الإيمان، ويغمدوا

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦.
(٢) المرجع السابق ص ٦٠ ـ ٦١.
(٣) تبسيط العقائد الإسلامية ص ٤٢.

سيوفهم، ويتوبوا بين يديه.

- وذكر الفخر الرازي أن سبعة عشر زنديقاً دخلوا إلى الإمام الشافعي فقالوا له: ما الدليل على وجود الله؟ فقال: ورقة التوت، طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟ قالوا: نعم، قال: فتأكلها دودة القز فيخرج منها الأبريسم، والنحل فيخرج منها العسل والشاة فيخرج منها البعر، وتأكلها الظباء فينعقد في نوافحها المسك، فمن الذي خلق هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد؟.

فاستحسنوا منه ذلك، وأسلموا على يده[1].

وصدق الإمام الشافعي رضي الله عنه فمن الذي أقام في جسم النحل مصنعاً يحول ورقة التوت إلى عسل؟ ثم من الذي بنى في جسم الظبي مصنعاً يحول ورقة التوت إلى مسك؟ كذلك من الذي أنشأ في داخل جسم الشاة مصنعاً من نوع آخر يحول ورقة التوت ذاتها إلى بعر؟ هل من خالق غير الله؟.

وبعيداً عن الجدل الفلسفي، وفي لحظات معدودات، وفي كلمات يسيرات تمكن الإمام الشافعي رضي الله عنه أن يقنع هؤلاء بوجود الخالق سبحانه ويسلموا على يديه.

- وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن الدليل على وجود الله فقال: وفي يده بيضةٌ:

«ها هنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن، وصوت مليح»[2].

وهكذا يتبين لنا أن الأئمة الأعلام من السلف الصالح كانوا ينهجون

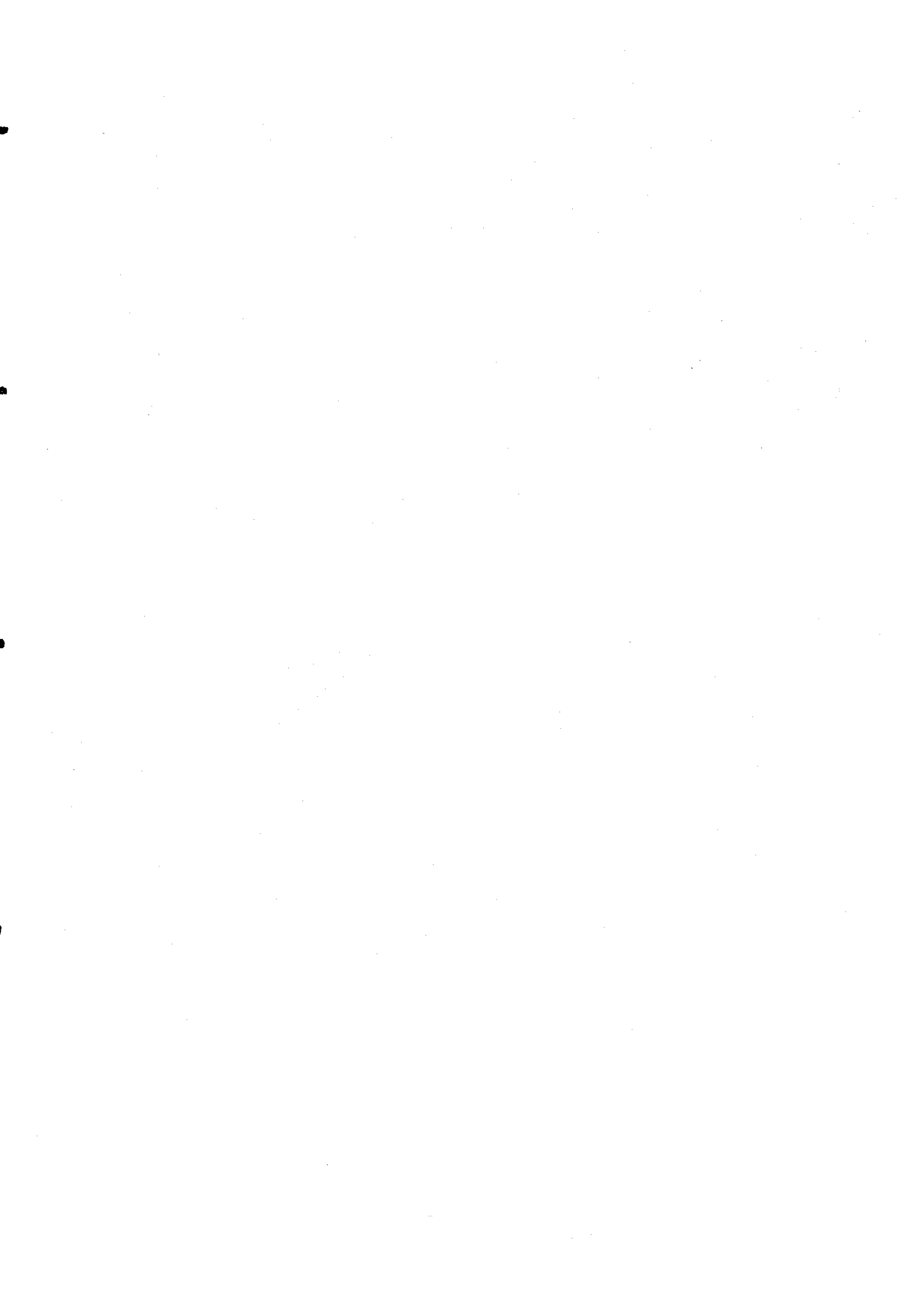
---

(١) مفاتيح الغيب للرازي جـ ١/٣١٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير جـ ١/٥٩.

منهج القرآن الكريم في الحديث عن وجود الله وتدبيره لهذا الكون وما فيه، بعيدين كل البعد عن إدخال الفلسفة والبراهين العقلية في ذلك، لعلمهم أن هذا الأسلوب قد يزيد القضية، قضية وجود الله تعقيداً وغموضاً، ولهذا فمن الخير لنا ونحن في عصر شاعت فيه العقائد الإلحادية لا في صورة دهريين أو زنادقة وإنما في صورة شيوعيين أو وجوديين أو ماديين أن نعود إلى منهج القرآن الكريم فهو خير منهج يحتذى في ذلك.

* * *

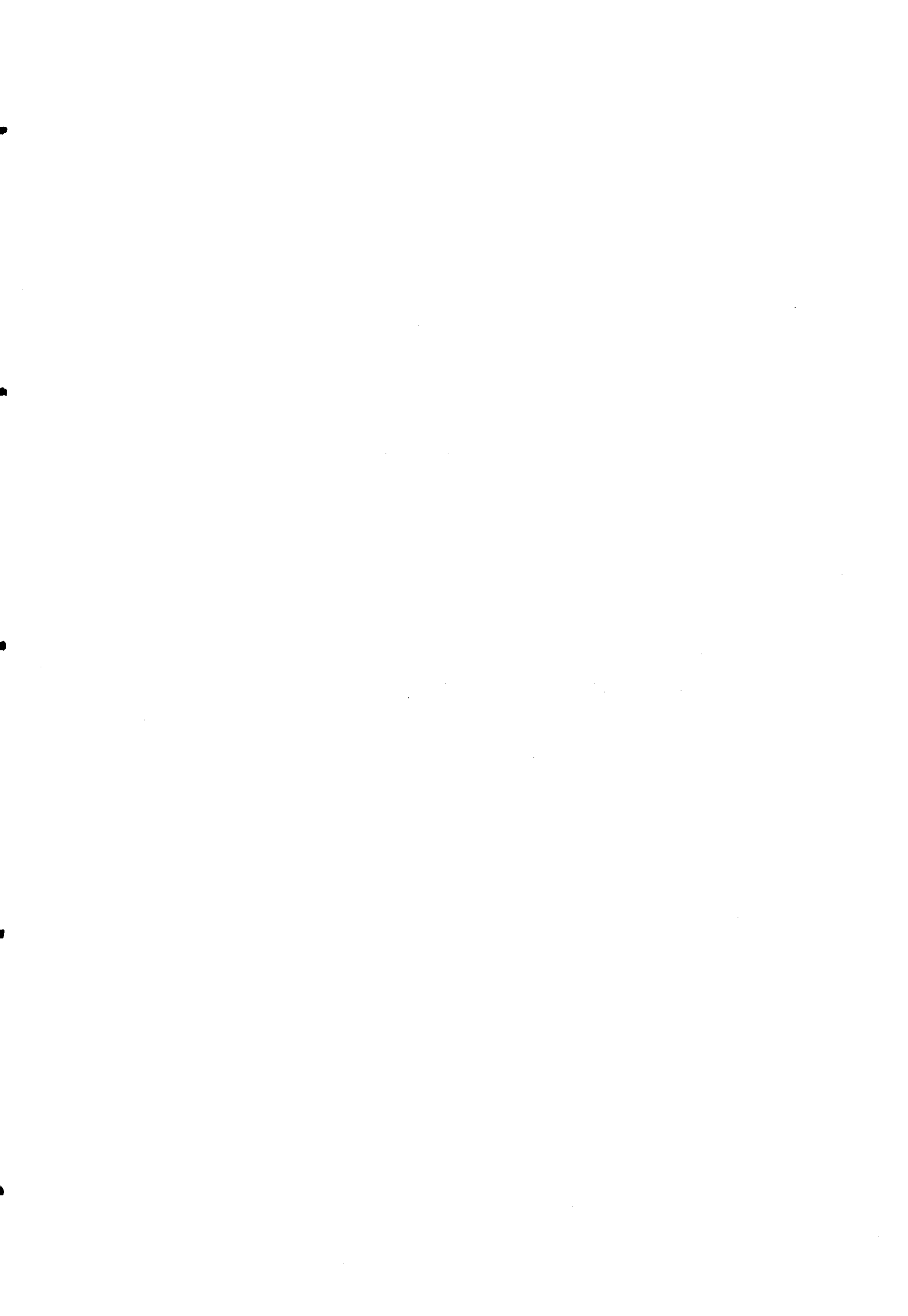


الفصـل الثانـي
الإيمان بالملائكة

وفيه مبحثان :

المحث الأول : الإيمان بالملائكة .

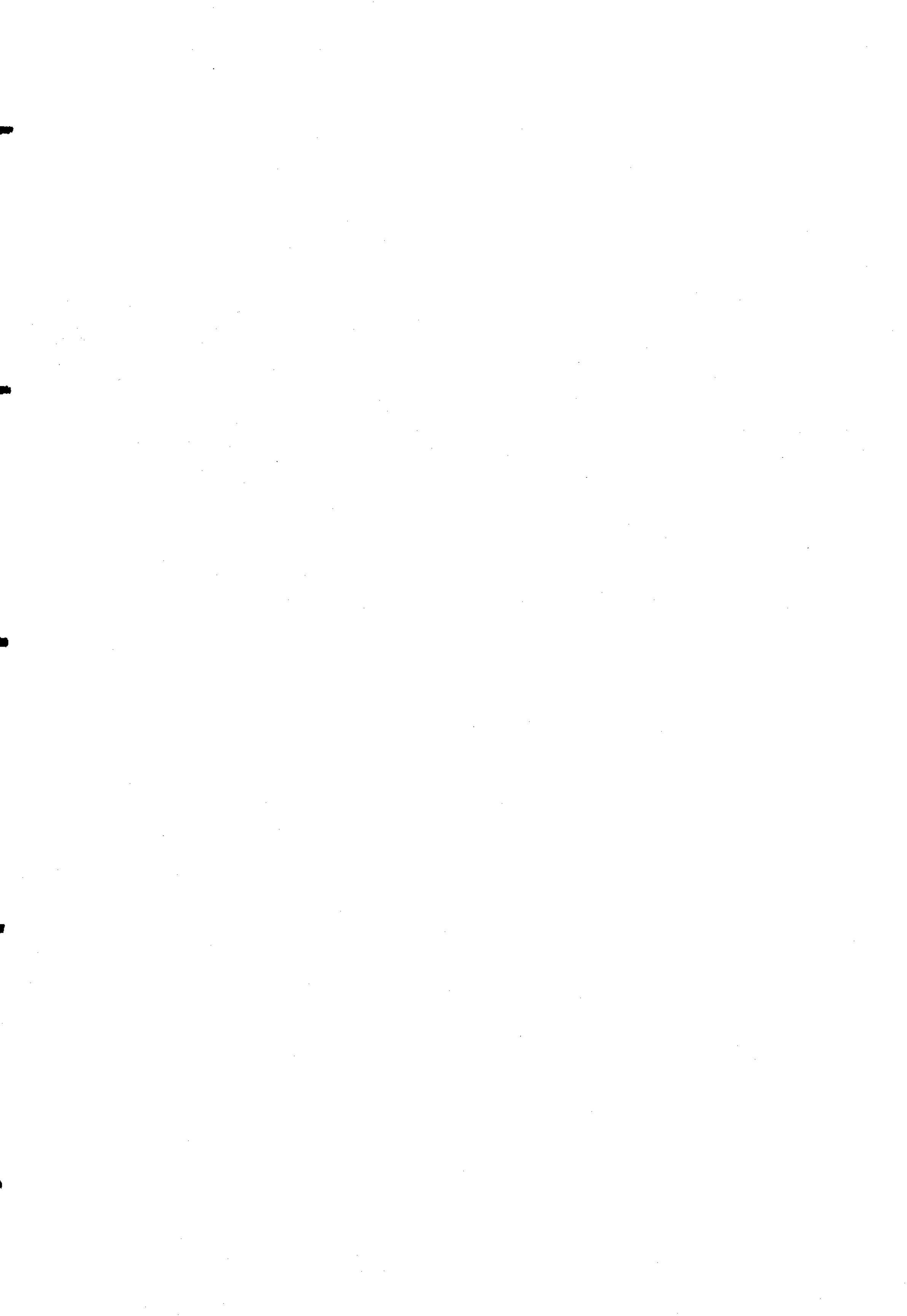
المبحث الثاني : ظاهرة الوحي .



المبحــث الأول

الإيمـان بالملائكـة

- عقيدة الإيمان بالغيب.
- حقيقة الملائكة ووجوب الإيمان بهم.
- صفاتهم.
- رؤساؤهم.
- أعمال الملائكة.



المبحث الأول
الإيمان بالملائكة

١ - عقيدة الإيمان بالغيب:

إن العوالم في التصور الإسلامي تنحصر في دائرتين، فأما الدائرة الأولى فإنها تشمل عالم الشهادة، وهو العالم الذي يقع تحت الحواس، فما نشاهده مَن أرض وسماء، وجبال ووديان، وبحار وأنهار، ونبات وأنعام، فهو من عالم الشهَادة، وما نسمعه من أصوات، ونشمه من روائح، ونتذوقه باللسان، ونلمسه باليد، كل أولئك يقع في دائرة عالم المدركات والمحسوسات.

أما الدائرة الثانية فإنها تشمل عالم الغيب، وهو العالم الذي يسميه الفلاسفة بعالم ما وراء الطبيعة، أي ما لا يدرك بالحواس، ومن هذه العوالم الغيبية عالم الملائكة، والجن والشياطين، وحقائق يوم القيامة من حساب وصراط وجنة ونار، كل هذه عوالم غيبية لا يستطيع البشر أن يدركوها بواحدة من الحواس التي وهبهم الله إياها.

وخير سبيل للإيمان بهذه العوالم الغيبية هو اتباع سبيل القرآن الكريم والسنّة النبوية الثابتة الصحيحة، فموقفنا من أي عالم يتجاوز دائرة المدركات هو أن نسأل أين جاء ذكر هذا العالم الغيبي؟.

فإن قيل: قد جاء ذكره في القرآن الكريم، والسنّة النبوية المتواترة الثابتة، فموقفنا إزاءه حينئذٍ أن نقول: آمنا وصدقنا، ذلك لأن الله تعالى وصف

نفسه بأنه عالم الغيب والشهادة في كتابه الكريم، من ذلك قوله عزّ شأنه: ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾[1]، وخير من يخبرنا عن هذه العوالم الله الذي خلقها، وهو وحده الذي يعلم حقيقتها ووجودها.

كذلك فإن رسول الله ﷺ حينما يتناول في سنته الثابتة الصحيحة الحديث عن أي من تلك العوالم الغيبية فإنه يجب علينا أن نعتقد بصدق ما أخبر عنه لأنه كما قال تعالى واصفاً نبيه: ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾[2].

وما دام القرآن الكريم والسنّة النبوية الصحيحة قد أثبتا وجود هذا العالم الغيبي فإنه لا مصلحة بعد ذلك أن نُعْمِلَ عقولنا بهدف أن نصل إلى حقيقة تلك العوالم، كمعرفتنا لحقيقة الروح، وطبيعة الملائكة، وحقيقة الجنة التي أعدها الله لعباده المتقين، وحقيقة النار التي أعدها الله للكافرين والفاسقين.

إنه لا مصلحة لنا في ذلك لأن عقولنا المحدودة القاصرة لم يعطها الله طاقة تستطيع بها أن تتجاوز عالم الشهادة إلى الحقائق الغيبية، ولأنها كذلك إذا لم تقف عند حدها، وتعرف قدرها وعجزها فإنها ستضل في بيداء مترامية الأطراف من التصورات الخرافية والأسطورية حول تلك المعالم الغيبية، ومن أعاد النظر فيما خلفه الفلاسفة القدماء والمحدثون حول دارستهم لعالم ما وراء الطبيعة سيجد ركاماً من تلك الخرافات والأساطير والأوهام.

ولقد اعترف الفلاسفة أنفسهم بعجز العقل البشري عن الخوض في عالم الغيب والبحث فيه، فهذا /كانت/ الفيلسوف الألماني يؤلف كتاباً في إثبات أن العقل لا يستطيع أن يحكم إلا على عالم المادة وحده، وعالم الغيب ما وراء المادة لا حكم للعقل عليه[3].

---

(١) الحشر ٢٢.

(٢) النجم ٣ ـ ٤.

(٣) تعريف عام بدين الإسلام ص ٥٤ ـ ٥٥.

والـذين يشتغلون بالعلوم المـادية كـالفيزيـاء والفلك والهنـدسـة والـطب يقـولـون: إنهم وضعـوا قـوانين العلوم كقـوانين الجـاذبيـة، وقـوانين الـطبيعـة والكيميـاء، ولا يزعمـون أن هـذه القـوانين شـرح للحقـائق، إنمـا هي شـرح لأوصافها الظاهرة[1].

وهـا هو ذا العـالم الشهير /آينشتـاين/ يقف عند درج صغيرٍ في أسفـل مكتبتـه ويقـول: «إن نسبـة ما أعلم إلى مـا لا أعلم كنسبـة هـذا الـدرج إلى مكتبي»[2].

وقد يقول بعض الملاحدة؛ إن ما لا يقع تحت عـالم الحواس لا وجـود لـه، وعلى ضوء هـذا يمضي هؤلاء في القول: إن المـلائكة عـالم لا يقع في دائرة الحواس فلا وجود له؟.

وهذا كلام باطل، لأنه كم من أشياء في هذا الكون مـا لا يقع في دائـرة الحواس، ولكنه مع هذا حقائق لا ينكرها عاقل، والشواهـد على هذه الأشيـاء التي لا ندركها، ونؤمن بوجودها كثيرة، يقول الدكتور ألكسيس كارليل:

«إن الماء سائل، ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننـا المجردة، ولكن الـواقع أن كـل جزيء من المـاء يشتمـل على ذرتين من الهيـدروجين وذرة من الأوكسجين، وليس من الممكن أن نـلاحظ هـذه الحقيقـة العلميـة بـأقـوى ميكـروسكوب في العـالم، غير أنهـا ثبتت لدى العلمـاء لإيمانهم بـالاستـدلال المنطقي»[3].

بـل إن نصف العلم الآن كما يقـول الدكتـور مصطفى محمـود ـ أصبح غيبـاً، العلم يلاحظ ويـدون الملاحـظات.. فالجـاذبيـة غيب لا أحـد يعـرف كنهها، ولم يرَ أحد الأعمدة التي ترفع السموات بما فيهـا من نجوم وكـواكب،

---

(١) عقيدة المسلم ـ الغزالي ـ ص ٤٣.
(٢) عقيدة المسلم ـ الغزالي ـ ص ٤٤.
(٣) مع التوحيد والأخلاق ص ٢٧.

ونيوتن نفسه صاحب النظرية يقول:

«إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس تؤثر على مادة أخرى، وتجذبها مع أنه لا توجد بينهما أية علاقة.

والإلكترون، والموجة اللاسلكية، والذرة، والنيوترون لم نرَ منها شيئاً، ومع ذلك نؤمن بوجودها اكتفاءً بآثارها، ونقيم عليها علوماً متخصصة، ونبني لها المعامل والمختبرات وهي غيب في غيب لحواسنا»[1].

وهناك أشياء في التاريخ البشري لا نؤمن بها إلا لأنها وصلت إلينا عن طريق النقل والرواية وإن لم نكن نحن بأنفسنا قد شهدناها وأحسسنا بها، إننا نوقن بأن الإسكندر المقدوني فتح بلاد فارس، وأن الوليد بن عبد الملك بنى الجامع الأموي، ولم نحضر حروب الإسكندر، ولا شهدنا بناء الجامع الأموي، فكيف أيقنا بوجود هذه الأشياء ولم ندركها بحواسنا[2]؟، أيقنا بوجودها عن طريق النقل والرواية.

أعود لأؤكد حقيقة أن خير سبيل لإثبات وجود العوالم الغيبية هو العودة إلى كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ثم العودة بعد هذا إلى سنّة رسول الله الثابتة الصحيحة.

٢ ـ حقيقة الملائكة ووجوب الإيمان بهم:

الإيمان بالملائكة واجب لا يتم إيمان المسلم إلا به، ومجمل الإيمان بالملائكة الاعتقاد بأن الله تعالى خلق عالماً أسماه الملائكة، والأدلة على وجود هذا العالم جاء ذكرها في القرآن الكريم والسنّة النبوية الثابتة الصحيحة، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾[3].

(١) رحلتي من الشك إلى الإيمان ص ٩٠ ـ ٩١.

(٢) تعريف عام بدين الإسلام ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) البقرة ٢٨٥.

ومن السنّة النبوية قول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله: «ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصف الأول، ويتراصون في الصف»[1].

والملائكة أرواح قائمة في أجسام نورانية، والدليل على هذا قول رسول الله ﷺ في حديث رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

والملائكة عدد كثير لا يحصيهم إلا الله الذي خلقهم، قال تعالى: ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن في الأرض، ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ وهو يشير إلى كثرتهم: «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملك قائم أو قاعد، أو راكع أو ساجد»[3].

٣ ـ صفاتهم:

للملائكة الكرام أوصاف كثيرة، أذكر منها ما يلي:

أ ـ إنهم أجسام نورانية كما أشار رسول الله ﷺ في الحديث الآنف الذكر «خلقت الملائكة من نور. .».

ب ـ إنهم موصوفون بالقوة، ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ بعد ما لقي من المشركين في الطائف من الإيذاء ما لقي جاءه جبريل، وقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/١٢٣.

(٢) الشورى ٥.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/١٢٠.

شئت، فنادى ملك الجبال رسول الله فسلم عليه ثم قال: يا محمد، مرني بما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[1].

ومن القوة والقدرة العظيمة التي وصف بها الملائكة قوله تعالى:

﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾[2]، وهم حملة عرش الرحمن ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ﴾[3].

جـ - ومن أوصافهم أنهم يموتون كما يموت البشر مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾[4]، «فهو تعالى وحده الحيّ الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد القهّار بالديمومة والبقاء»[5].

قال ابن عباس لما نزل قوله تعالى: ﴿ كل من عليها فانٍ ﴾[6]: قالت الملائكة هلك أهل الأرض، فنزلت: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾[7]، فأيقنت الملائكة بالموت[8].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[9] رحمه الله حين سئل: هل جميع

---

(١) المصدر السابق ٤/١٢٥.
(٢) البقرة ٢٥٥.
(٣) المؤمن ٧.
(٤) آل عمران ١٨٥.
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٤٣.
(٦) الرحمن ٢٦.
(٧) القصص ٨٨.
(٨) الجامع لأحكام القرآن ١٧/١٦٥.
(٩) مجموع الفتاوى ٤/٢٥٩ - ٢٦٠.

الخلق حتى الملائكة يموتون؟ فأجاب: الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة، وحتى عزرائيل ملك الموت. . والله سبحانه قادر على أن يميتهم ثم يحييهم كما هو قادر على إماتة البشر والجن ثم إحيائهم «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه»[1].

د ـ ومما يوصف به الملائكة الكرام أنهم يعبدون الله، ولا يستكبرون عن عبادته، ومن عبادتهم لله كما قال الله تعالى: ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾.

وفي الحديث المتفق عليه عن جابر بن سمرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصف الأول ويتراصون في الصف»[2]. وفي الصحيحين عن أنس عن مالك بن صعصعة في حديث المعراج عن رسول الله ﷺ لما ذكر صعوده إلى السماء السابعة، قال: فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: «هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليهم»[3].

هـ ـ ومن أوصافهم أن الملائكة تنفر من البيوت التي فيها صورة أو كلب أو جنب، وتلعن المرأة إذا دعاها زوجها إليها فامتنعت.

روى أبو داود والنسائي أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا جنب ولا كلب».

وروى الشيخان أنه ﷺ قال:

«إذا دعا الرجل إمرأته إلى فراشه فلم تأتِ فبات غضبان عليها

---

(١) الروم ٢٧.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/١٢٣.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/١٢٣.

لعنتها الملائكة حتى تصبح».

و ـ ومن أوصافهم أن الله تعالى أعطى الملائكة القدرة على التشكل بأشكال مختلفة حسب المناسبات التي تقتضيها الحالات التي يذهبون فيها بأمر الله، قال تعالى مخبراً عن ضيف إبراهيم عليه السلام:

﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا: سلاماً قال: سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا: لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾[1].

فقد جاء الملائكةُ إبراهيمَ عليه السلام في صورة غلمان حسان الوجوه ذوو وضاءة وجمال[2].

وقال تعالى مخبراً عن السيدة البتول مريم عليها السلام:

﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ﴾[3].

والروح في الآية هو جبريل عليه السلام جاءها في صورة بشر مستوى الخلقة، لأنها لم تكن لتنظر إلى جبريل في صورته[4].

وفي الحديث المتفق عليه عن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام.. ثم انطلق.. فلبث ملياً ثم قال: يا عمر أتدري

---

(١) هود ٦٩ ـ ٧٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩/٦٢.
(٣) مريم ١٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١١/٩٠ ـ ٩١.

من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

٤ ـ رؤساء الملائكة وأكابرهم:

والملائكة ـ كما ذكرنا ـ عددهم كثير لا يحصيهم إلا الله ومن أكابرهم ورؤسائهم:

١ ـ جبريل عليه السلام:

وقد وصفه الله بأمور:

الأول : أنه صاحب الوحي إلى الأنبياء ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾[٢].

الثاني : أنه تعالى ذكره قبل سائر الملائكة في القرآن ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾[٣].

والثالث : أنه تعالى جعله ثاني نفسه ﴿ فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ﴾[٤].

الرابع : سماه روح القدس، قال تعالى في حق عيسى عليه السلام: ﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾[٥].

الخامس : أنه تعالى مدحه بصفات ست في قوله: ﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين ﴾[٦].

وله ستمائة جناح كما رآه رسول الله ﷺ على صورته الملكية، وهو الذي رفع مدائن لوط وجعل عاليها سافلها.

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب ١٦٢/٢.
(٢) الشعراء ١٩٣.
(٣) البقرة ٩٧.
(٤) التحريم ٤.
(٥) المائدة ١١٠.

٢ ـ **ميكائيل عليه السلام:**

ووظيفته الأساسية القيام على النبات والمطر[١]، ينزله بإذن الله تعالى إلى حيث أمر الله وبمقدار ما أمر الله به، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «قلت يا جبريل على أي شيء أنت؟ قال: على الرياح والجنود، قلت: على أي شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر»[٢].

٣ ـ **ملك الموت:**

ووظيفته قبض الأرواح مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾[٣].

وقد يساعده ملائكة آخرون في هذه الوظيفة كما قال تعالى:

﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ [٤].

٤ ـ **إسرافيل عليه السلام:**

ملك عظيم الخشية لله تعالى، روى الترمذي وصححه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق إسرافيل منذ يوم خلقه صافاً قدميه، لا يرفع بصره» أي من خشية الله تعالى.

وهو الذي يدعو الخلائق يوم القيامة بأمر الله فيخرجون من قبورهم ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾[٥]، وهو الذي ينفخ في الصور النفخة الأولى فيموت الخلق جميعاً إلا ما شاء الله ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في

---

(١) أركان الإيمان ـ الغاوجي ص ١٢٦.

(٢) الحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور وقال: حديث حسن.

(٣) السجدة ١١.

(٤) محمد ٢٧.

(٥) الروم ٢٥.

الأرض إلا من شاء الله ﴾[1].

وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه الحاكم وصححه:

«كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته ينتظر أن يؤمر فينفخ؟».

٥ ـ مالك خازن النار:

ومن رؤساء الملائكة مالك خازن النار، قال تعالى: ﴿ ونادوا يا مالك ليقضي علينا ربك، قال: إنكم ماكثون ﴾[2].

٦ ـ رضوان خازن الجنة:

ورضوان عليه السلام رئيس خزنة الجنة ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾[3].

وفي حديث مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن من؟ فأقول: محمد، فيقول الخازن: بك أمرت ـ أي أمرني الله تعالى ـ ألا أفتح لأحد قبلك».

٥ ـ أعمال الملائكة:

وللملائكة أعمال كثيرة يؤدونها كما أمرهم الله تعالى، وأذكر من هذه الأعمال ما يأتي:

١ ـ حفظ الناس وكتابة أعمالهم:

قال العلماء رضوان الله عليهم: «إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين»:

---

(١) الزمر ٦٨.

(٢) الزخرف ٧٧.

(٣) الزمر ٧٣.

أحدهما: قضى حلوله ووقوعه بصاحبه، فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره.

والآخر: قضى مجيئه ولم يقضِ حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ»[١].

وقد قال الله تعالى في محكم كتابه:

﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾[٢].

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

«للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات فإذا جاء قدر الله خلوا عنه، وقال مجاهد: ما من عبد إلا ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه»[٣].

وأما كتابة الأعمال فقد جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى:

﴿ إذ يتلقي المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾[٤].

«قال مجاهد: وكل: الله بالإنسان مع علمه بأحواله ملكين بالليل، وملكين بالنهار يحفظان عمله، ويكتبان أثره، إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات»[٥].

٢ ـ سؤال الميت في قبره:

ومن أعمال الملائكة أنهم يسألون الأموات في قبورهم، ويختبرونهم،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٩٤.
(٢) الرعد ١١.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٣.
(٤) قٓ ١٧ ـ ١٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٩.

جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل، محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً، ويفسح له من قبره سبعون ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون، وأما الكافر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري إني كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ويُضْرَبُ بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين، ويُضَيقُ عليه قبره حتى تختلف أضلاعه».

٣ ـ حضور الصلوات:

ومن أعمالهم حضور صلاة الفجر وصلاة العصر، فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم، فيقول كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون».

٤ ـ الاشتراك في القتال:

ومن أعمالهم الاشتراك في القتال إلى جانب المسلمين، فقد أخرج مسلم عن ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين في غزوة بدر يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس أقدم حيزوم[١]، فنظر إلى المشرك أمامه قد خر مستلقياً، وقد شق وجهه بضربة سوط... فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذلك مدد من السماء الثالثة[٢].

---

(١) أسم فرس جبريل، أي أقدم يا حيزوم.

(٢) حياة الصحابة ٥٣٨/٣.

٥ ـ حضور مجالس القرآن:

ومن أعمالهم حضور مجالس القرآن، فقد روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن أسيد بن حضير بينما هو في ليلة يقرأ في مربده إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى فقرأ، ثم جالت أخرى أيضاً، قال: أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى، فقمت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسي، فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال رسول الله ﷺ: «تلك الملائكة تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم»(١).

٦ ـ حضور مجالس الذكر:

ومن أعمالهم حضور مجالس الذكر، جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن لله ملائكة سيارة فضلاء، يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا فيه مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى ما يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، فيسألهم الله ـ وهو أعلم ـ: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك، قال: وما يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك، قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا، أي رب، قال: فكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك، قال: ومم يستجيروني؟، قالوا: من نارك، قال: وهل رأوا ناري؟، قالوا: يا رب لا، قال: وكيف لو رأوا ناري؟، قالوا: ويستغفرونك، قال: فيقول: قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم بما استجاروا، قال: يقولون: رب فيهم فلان عبد خطّاء، إنما مر فجلس معهم، قال: فيقول: وله قد غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»(٢).

---

(١) حياة الصحابة ٣/٥٤٧ ـ ٥٤٨.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/١٢٤.

المبحـــث الثانـــي
ظاهــرة الوحــي

- تعريف الوحي لغة وشرعاً.
- شبهات المستشرقين.
- دلائل ثبوت ظاهرة الوحي.

المبحث الثاني
ظاهرة الوحي

أولاً ـ تعريف الوحي لغة وشرعاً[1] :

الوحي لغة: هو الإعلام في خفاء، ويدخل تحته:

أ ـ **الإلهام الغريزي للحيوان**: كالوحي إلى النحل، ومنه قوله تعالى: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ﴾[2].

ب ـ **وسوسة الشيطان في النفس**: ومنها قوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾[3].

جـ ـ **الإشارة السريعة على سبيل الرمز**: ومنها قوله تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾[4].

---

(١)
(٢) النحل ٦٨.
(٣) الأنعام ١١٢.
(٤) مريم ١١.

د ـ **إلهام الخواطر**: كالوحي إلى أم موسى: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾[1].

والوحي شرعاً: هو تعليم الله واحداً من عباده بطريقة من طرق الوحي وهي:

١ ـ **الوحي بالرؤيا الصادقة**: ومنه ما جاء في الحديث المتفق عليه عن عائشة قالت:

«أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح».

ومنه قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: «يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك»[2].

٢ ـ **إلهام النبي في حالة اليقظة**: روى ابن حبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

٣ ـ **الكلام من وراء حجاب**: ومنه قوله تعالى: ﴿ وكلّم الله موسى تكليماً ﴾[3].

٤ ـ ويكون بتكليم النبي بواسطة جبريل عليه السلام.

ثانياً: شبهات المستشرقين حول ظاهرة الوحي:

أثار المستشرقون في دراساتهم عن الرسول ﷺ ونبوته زوابع من الشبهات حول ظاهرة الوحي، لأن الإسلام في أصوله وفروعه إنما يقوم على

---

(١) القصص ٧.

(٢) الصفات ١٠٢.

(٣) النساء ٦٤.

قاعدة الإيمان بأن القرآن الكريم كله وحي من الله إلى رسوله ﷺ، وحينما يرتاب المسلم في الوحي يدفعه هذا الارتياب إلى أن يشك في الإسلام كله جملة وتفصيلا.

ويمكن حصر تلك الشبهات والشكوك التي أثاروها حول الوحي في شبهتين اثنتين:

فأما الشبهة الأولى فقولهم: إن رسول الله ﷺ كان مصاباً باضطراب في قواه العقلية، بل قد وصلت الحماقة ببعض هؤلاء المستشرقين إلى أن يصف رسول الله ﷺ بالهوس والصرع، فهذا جوستاف لوبون يقول:

«يجب عدّ محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كأكبر مؤسسي الديانات، ولا أهمية لذلك، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشؤون الديانات، ويقودون الناس، وإنما أولو الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور»[1].

وأما الشبهة الثانية فقولهم: لعل الحالة التي كانت تعتري رسول الله ﷺ حالة اضطراب في أعصاب البصر، يخيل له معها أنه يرى شيئاً وهو لم يرَ في الحقيقة شيئاً.

وقبل أن أذكر دلائل ثبوت ظاهرة الوحي أشير هنا إلى بعض أهداف المستشرقين من زرع هذه الشبهات في النفوس وإثارتها في دراساتهم.

فأما الهدف الأساسي - من وجهة نظري - فهو إخراج مشاعر الحقد والكراهية التي يحملها هؤلاء في صدورهم لهذه الرسالة الإسلامية ونبيها صلوات الله وسلامه عليه، وإظهار عداوتهم الشديدة لهذا الدين العظيم الذي جاء به رسول الله من عند الله، ولا أدل على هذه الكراهية وتلك العداوة أنهم

---

(١) حضارة العرب/ غوستاف لوبون - ت: زعيتر ص ١٤١ - ١٤٥ - ط ببيروت ١٣٩٩ هـ.

إن سألتهم يهودا كانوا أم نصارى هل تؤمنون بالوحي الذي كان ينزل على رسول الله موسى وعيسى عليهما السلام؟ لأجابوا:

نعم، لأنهم إن أنكروا الوحي كفروا بيهوديتهم ونصرانيتهم، وهم أشد الناس تعصباً لباطلهم وديانتهم المحرفة.

فما معنى إذاً أن يؤمن هؤلاء وهؤلاء بوحي ينزل على رسولين كريمين هما موسى وعيسى عليهما السلام وينكروا الوحي نفسه الذي ينزل على رسول الله محمد ﷺ؟.

ثم إن ما ادعاه المستشرقون من إصابة رسول الله باضطراب في قواه العقلية والبصرية أشبه ما يكون بتقرير طبي، ومن أولى متطلبات أي تقرير طبي أن يحدث لقاء مباشر بين الطبيب وبين من يفحصه ويكشف عليه، أما وأن هذا اللقاء لم يحدث بين واحد من هؤلاء الحاقدين وبين رسول الله ﷺ فأقل ما يقال فيه: إنه تقرير مزيف كاذب.

وصدق الله تعالى حين سجّل مشاعر الكراهية والبغضاء التي يكنّها هؤلاء في قلوبهم في هذه الآية الكريمة: ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾[1].

ولقد زكّى الله عقل رسوله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزمان فقال تبارك وتعالى: ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾[2].

وزكّى بصر رسول الله ﷺ فقال:

﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾[3].

---

(١) البقرة ١٢٠.
(٢) النجم ١١.
(٣) النجم ١٧.

ثالثاً ـ دلائل ثبوت ظاهرة الوحي:

دلائل ثبوت ظاهرة الوحي كثيرة أذكر منها ما يأتي:

١ ـ شهادة القرآن الكريم:

لقد شهد الله تعالى بنفسه ـ وكفى بالله شهيداً ـ أن هذا القرآن الكريم ليس من عمل رسول الله ﷺ ولا من قوله، وإنما هو قول ملك كريم: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين﴾[١].

ولم يكن لرسول الله ﷺ في القرآن من عمل بعد ذلك إلا الوعي والحفظ والحكاية والتبليغ، البيان والتفسير، ثم التطبيق والتنفيذ[٢].

قال تعالى: ﴿قل إنما اتبع ما يوحي إليّ من ربي﴾[٣]. ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحي إليّ﴾[٤].

٢ ـ شهادة المستشرقين المنصفين:

ولقد شهد المستشرقون المنصفون أنفسهم بصدق ظاهرة الوحي، فهذا المستشرق ر. ف. بودلي يقول في كتابه: «حياة الرسول محمد»:

«إنه لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي يتمتع بها رسول الله حتى قبل مماته بأسبوع وما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً، وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً... ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد»[٥].

وأثبت الأستاذ شبرل عميد كلية الحقوق في النمسا صدق ظاهرة الوحي، وصدق نبوته ﷺ من خلال دراسته للشريعة الإسلامية فقال:

---

(١) التكوير ١٩ ـ ٢١.

(٢) النبأ العظيم ص ٢٠.

(٣) الأعراف ٢٠٣.

(٤) يونس ١٥.

(٥) نقلاً عن كتاب صور من عظمة الإسلام ـ كشك ص ٥١.

«إن البشرية لتفتخر أن يكون هناك رجل يدعى محمد بن عبد الله ينتسب إليها وإن أوروبا لتكون سعيدة لو أنها وصلت إلى قمة شريعة محمد بعد ألف عام»[1].

ورأى تين دينيه أن استمرارية الإسلام في هذا العصر دليل على صدق نبوة رسول الله، قال:

«إن نفراً من النصارى في مختلف الأقطار الإسلامية دانوا بالإسلام في الأعوام الأخيرة، ويكثر عددهم على مر الأيام، والذين يعتنقون الإسلام في وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم إنما هم من الخاصة سواء كانوا في الهيئات الاجتماعية الأوروبية والأمريكية، كما أن إخلاصهم في ذلك لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية»[2].

٣ ـ الفرق بين الوحي والحالات العصبية:

إن الوحي خلافاً للحالات العصبية التي تصيب الإنسان كان يعتري رسول الله ﷺ قائماً أو قاعداً، وسائراً أو راكباً، وبكرة أو عشياً، وفي أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه وكانت تعروه فجأة، وتزول عنه فجأة، وتنقضي عنه في لحظات يسيرة لا بالتدريج الذي يعرض لمن أصيب بالاضطرابات العقلية والعصبية[3].

«ثم إن المباينة التامة بين أعراض الوحي وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التي تصفر فيها الوجوه، وتبرد الأطراف وتصطك الأسنان وتكشف العورات، ويحتجب نور العقل، ويخيم ظلام الجهل، لأن الوحي مبعث نمو في قوة البدن، وإشراق في اللون، ومبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة»[4].

---

(١) شريعة الإسلام ـ د. / قرضاوي ص.

(٢) الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين ص ٤١.

(٣) النبأ العظيم ص ٧١ ـ ٧٢ بشيء من التصرف.

(٤) المرجع السابق ص ٧٢.

ولو نظرنا إلى حالة رسول الله عند نزول الوحي عليه لوجدنا أن الوجه وحده هو الذي يحتقن، بينما يتمتع صلوات الله وسلامه عليه بحالة عادية، وحرية عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية بحيث يستخدم ذاكرته **استخداماً** كاملاً خلال نزول الوحي، على حين يزول وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة، فحالة رسول الله ﷺ بناءً على هذا ليست حالة مرضية، ثم إن الأعراض الجسمية التي رويت عن رسول الله لا تظهر إلا في اللحظة التي ينزل فيها عليه الوحي، وهذا التلازم الملحوظ بين ظاهرة نفسية في أساسها وحالة عضوية معينة هو الطابع الخارجي المميز للوحي[1].

إلى جانب هذا فإن الوحي كان قد انقطع عن رسول الله ﷺ فترة من الزمان، فكان يتمناه ويريده، بل يناديه ولا من مجيب، وفي هذا دلالة واضحة على أن الوحي لا يصدر عن ذاته ﷺ، ولا يوافيه طوع إرادته.

٤ ـ مجيء الوحي على غير ما يهواه:

وكان الوحي يجيئهُ بالقول على غير ما يحبه ويرضاه، من ذلك قوله تعالى: ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾[2]، ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾[3]، ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾[4].

«أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه، ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه، أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل؟»[5].

---

(١) الظاهرة القرآنية ص ١٨٢ مع شيء من التصرف.
(٢) التوبة ٤٣.
(٣) الأنفال ٦٧.
(٤) عبس ١ ـ ٢.
(٥) النبأ العظيم ص ٢٤ ـ ٢٥.

٥ ـ حاجته إلى الوحي في أوقات عصيبة :

ومن دلائل ثبوت ظاهرة الوحي أنه كانت تنزل برسول الله ﷺ نوازل شديدة وكانت تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً، ولكنه كانت تمضي الأيام والليالي تتبعها الأيام والليالي وليس عنده شيء من القرآن يقرأه على الناس.

من ذلك أنه عندما شاع المنافقون حديث الإفك عن السيدة عائشة رضي الله عنها لم يزد إلا أن قال: «يا عائشة، أما إنه قد بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله».

فلو أن القرآن كان من عند نفسه ماذا كان يمنعه أن يقول هذه الكلمة ليحمي بها عرضه بدلاً من أن ينسبها إلى الوحي[1].

٦ ـ الدلائل الحسية :

ومما يثبت ظاهرة الوحي الدلائل الحسية البصرية والسمعية وسواها، ومن الرؤية البصرية أن رسول الله ﷺ كان قد رأى جبريل عليه السلام على هيئته الملكية كما جاء في حديث مسلم:

«بينما أنا أمشي سمعت صوتاً في السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض».

كذلك فإنه ﷺ كان يرى جبريل في صورة بشرية يتمثل أحياناً في صورة دحية الكلبي، وأحياناً في صورة أعرابي، كما جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ «وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول».

ومن الأدلة السمعية سماع رسول الله ﷺ عند نزول الوحي صوتاً مثل صلصلة الجرس، أو دوياً كدوي النحل.

روى البخاري ومسلم أنه ﷺ سئل: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: أحياناً

---

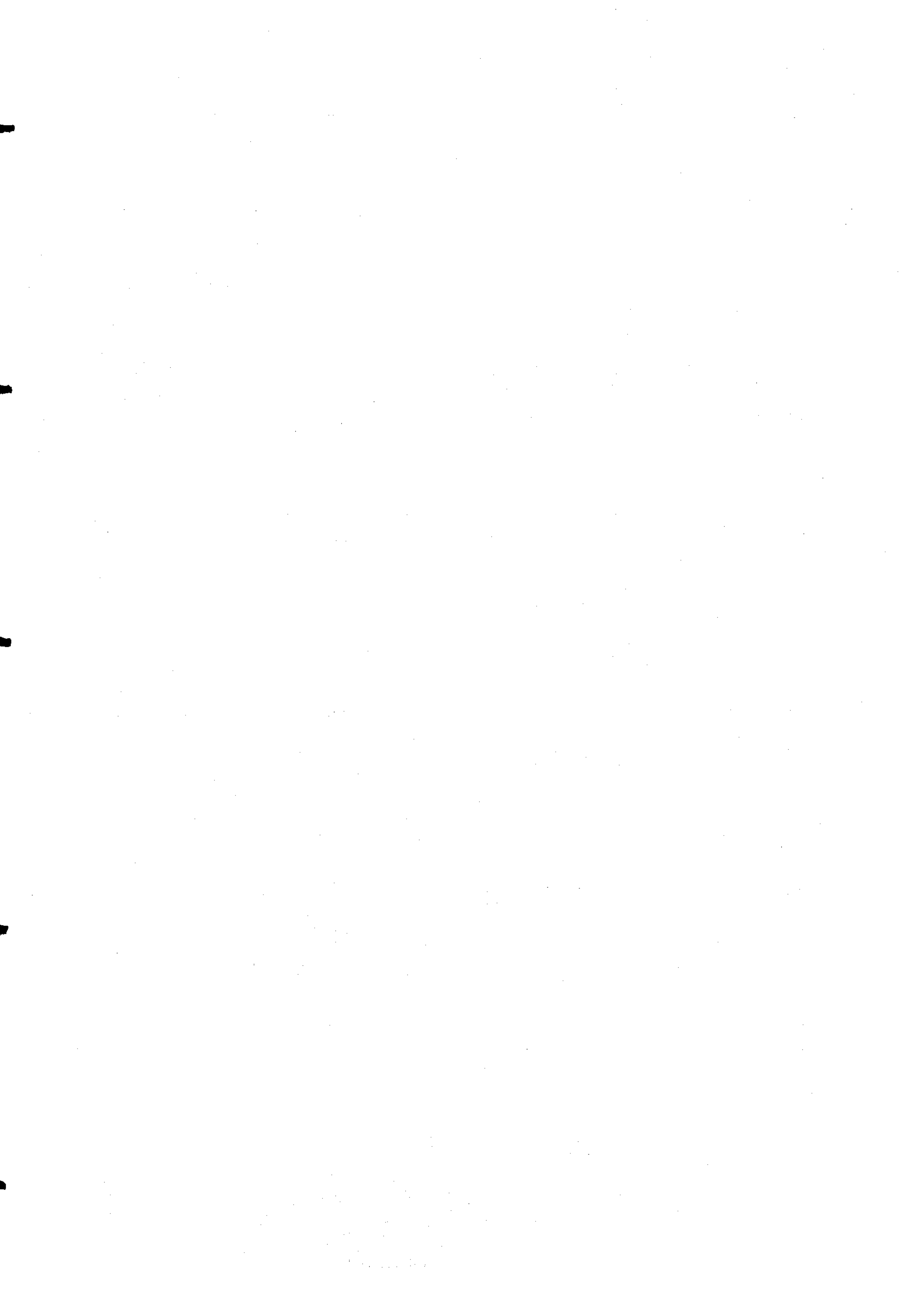
(١) النبأ العظيم ص ٢٣ ـ ٢٤.

يـأتيني مثل صلصلة الجـرس، وهـو أشـده عليّ، فيفصمُ عني وقـد وعيت مـا يقول.

وروى الحـاكم في حـديث حسن عن عمـر بن الخـطاب قـال: كـان رسول الله ﷺ إذا نزل الوحي سمع عند وجهه دوي كدوي النحل.

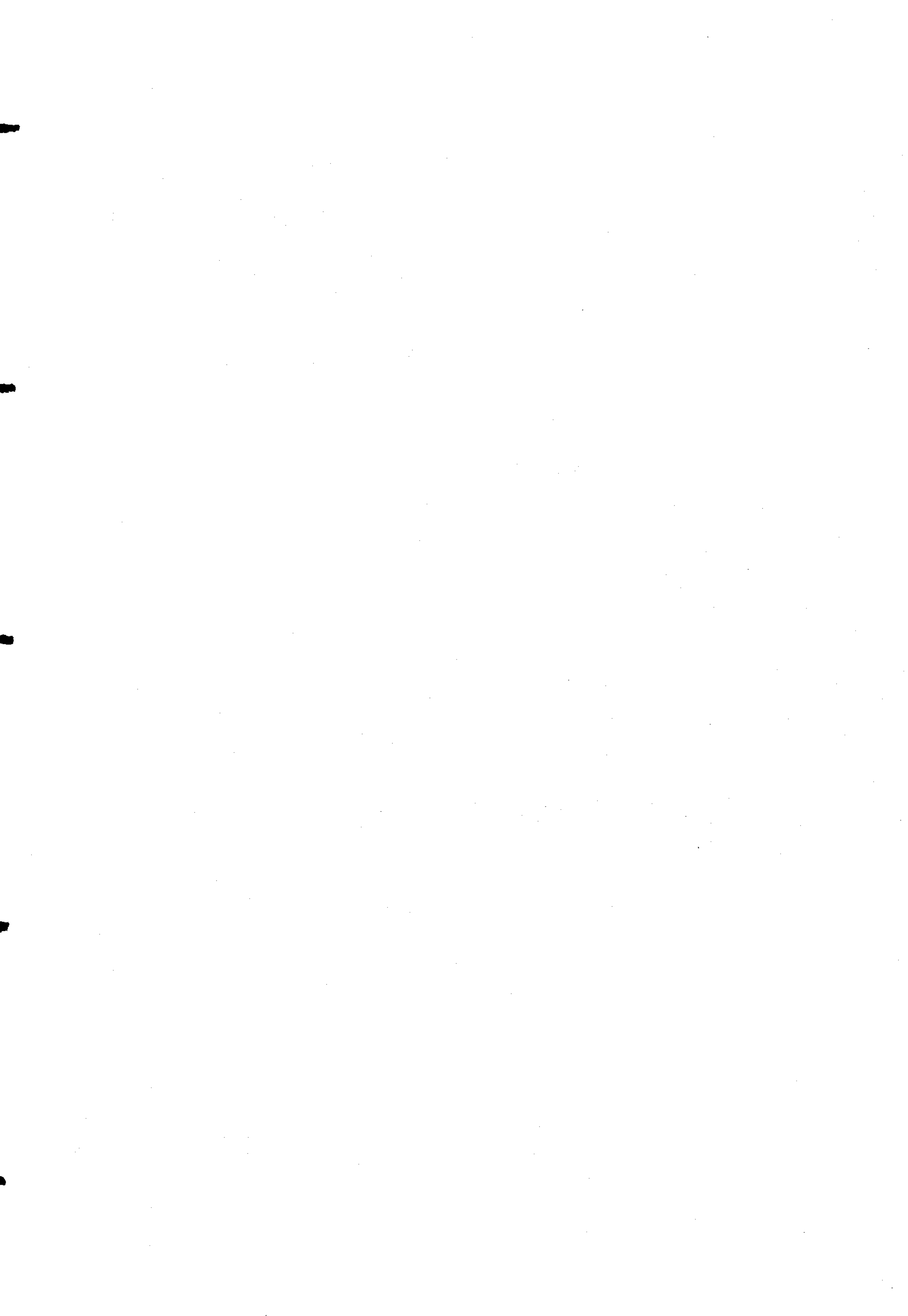
وهناك أدلة حسية أخرى تثبت صدق ظاهرة الوحي منها ما أخرجه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: حينمـا كان ينـزل الوحي على رسـول الله ﷺ يعـاني رسول الله رهقـاً حتى إن راحلته لتبـرك به إلى الأرض إذا كـان راكبها. ومنهـا ما أخـرجه البخـاري عن زيد بن ثـابت أنه أوحي إلى رسـول الله وفخذه على فخذ زيد فثقلت عليه حتى خاف أن ترض فخذه.

* * *



الفصل الثالث
الإيمان بالكتب السماوية

- وجوب الإيمان بالكتب السماوية.
- تحريف التوراة.
- تحريف الإنجيل.
- دلائل حفظ القرآن الكريم من التحريف



الإيمان بالكتب السماوية

١ ـ وجوب الإيمان بها:

الكتب السماوية هي كتب الله تعالى: وهي الصحف التي حوت كلام الله عزّ وجلّ الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام فكونت كتباً، أو بقيت صحفاً لم تجمع، ولم يتكون عنها كتاب خاص فالصحف كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، والكتب كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن الكريم»[١].

والإيمان بالكتب السماوية واجب شرعاً، يكفر من أنكرها، والدليل على وجوب الإيمان بها قد جاء ذكره في القرآن الكريم والسنّة النبوية، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾[٢].

ووصف الله تعالى الرسول ﷺ والمؤمنين أنهم يؤمنون بالكتب السماوية التي أنزلها على رسله فقال سبحانه:

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته

---

(١) عقيدة المؤمن ـ الجزائري ص ١٨٩.
(٢) النساء ١٣٦.

وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾[1].

ومن السنّة كما جاء في الحديث المتفق عليه أن جبريل سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..».

والكتب السماوية نوعان، كتب مجملة ومفصلة، فأما المجملة فقد ذكرت في قوله تعالى: ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ﴾[2] وهذه الكتب السماوية المجملة ما لا علم لنا بها، ونحن ملزمون شرعاً بالإيمان بها..

أما الكتب السماوية المفصلة فهي التي ذكرت في القرآن الكريم بأسمائها، وهي القرآن الكريم، والإنجيل، والتوراة، والزبور، وصحف إبراهيم عليه السلام.

أما الإنجيل فقد أنزله الله على عيسى عليه السلام، فقال سبحانه:

﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور، مصدقاً لما بين يديه من التوراة ﴾[3].

وأنزلت التوراة على موسى عليه السلام، فقال سبحانه:

﴿ الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ﴾[4].

والزبور أنزله الله على داود عليه السلام فقال جلّ شأنه:

﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾[5].

---

(١) البقرة ٢٨٥.
(٢) البقرة ٢١٣.
(٣) المائدة ٤٦.
(٤) الإسراء ٥٥.
(٥) الأعلى ١٤ ـ ١٩.

وأخبرنا الله تعالى أنه أنزل على الخليل إبراهيم عليه السلام صحفاً فقال: ﴿ قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى، بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، إن هذا الفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾(١).

والإيمان بهذه الكتب السماوية المدونة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم واجب، فمن أنكر واحداً منها فقد كفر.

ومما يجب على المسلم أن يعتقده ويؤمن به أن القرآن الكريم قد نسخ ما سبقه من كتب سماوية، وقد بين الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾(٢)، وكما أن القرآن الكريم ثبت نسخه للكتب السماوية السابقة فإن الدين الإسلامي كذلك قد نسخ سائر الأديان وذلك لقوله تعالى: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(٣).

وقد بين رسول الله ﷺ أن القرآن الكريم قد نسخ ما سبقه من الكتب السماوية حيث قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد وجد في يده صحيفة من توراة يقرأ فيها:

«والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»(٤).

---

(١)
(٢) النساء ١٠٥.
(٣) آل عمران ١٩.
(٤) رواه الإمام أحمد والبزار.

٢ ـ تحريف التوراة والإنجيل:

أولاً: تحريف التوراة:

● **معنى التوراة**[1]:

التوراة كلمة عبرية أصلها (تورة) ومعناها الهدى والرشاد، ويقصد بها الأسفار الخمسة من العهد القديم وهي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية.

والأسفار التي عند اليهود ليست محصورة في هذه الأسفار الخمسة فحسب بل ألحقت بها أسفار كثيرة، وتقع هذه الملحقات في أربعة وثلاثين سفراً.

والتوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام الإيمان بها واجب، قال تعالى: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾[2]، ولكنها غير موجودة وقد أصابها التحريف والتبديل.

● **الدوافع وراء تحريف التوراة:**

وهناك جملة من الدوافع دفعت أحبار اليهود إلى تبديل التوراة وتحريفها.

الدافع الأول: أن اليهود كانوا في الأسر يعانون الاضطهاد، وهم جماعة معزولة محتقرة، بحاجة إلى تعبئة روحية لمسح ذل العبودية عن جباهم.

الدافع الثاني: أرادوا أن يستروا سخافاتهم وسخائمهم وذلك بإرجاع انتمائهم إلى شخصية لها مكانتها المحترمة في المنطقة وهي شخصية الخليل إبراهيم عليه السلام.

الدافع الثالث: أراد اليهود أن يعطوا لأنفسهم صفة الرجولة والشجاعة

---

(١) أنظر في معنى التوراة: المسيح في القرآن ص ٤٣، وجذور الفكر اليهودي ص ٥٧ ودراسة في الكتب المقدسة ص ٢٦.

(٢)

وذلك بانتمائهم إلى موسى عليه السلام[1].

يقول ابن قيم الجوزية وهو يتحدث عن سبب تبديل التوراة:

«إن موسى لم يبد لبني إسرائيل من التوراة إلا نصف سورة، وأما بقية التوراة فقد جعلها في أولاد هارون، وصانها عمن سواهم، فقتلهم بختنصر على دم واحد، وأحرق هيكلهم، ولم تكن التوراة محفوظة على ألسنتهم. . . فلما رأى عزيزٌ أن القوم قد أحرق هيكلهم، وزالت دولتهم وتفرق جمعهم، ورفع كتابهم، جمع من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفق منه هذه التوراة التي في أيديهم»[2].

● **دلائل تحريف التوراة:**

والدلائل على تحريف التوراة كثيرة أذكر منها ما يلي:

١ ـ شهادة القرآن الكريم:

من أعظم الأدلة على تحريف التوراة شهادة القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾[3]، فرسول الله ﷺ «يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه. . وكان الرجم مما أخفوه»[4].

ومنه قوله تعالى: ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾[5].

قال ابن كثير: «هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما

---

(١) أنظر في هذه الدوافع في كتاب جذور الفكر اليهودي ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) الجامع الفريد ـ كتاب هداية الحيارى ص ٥٨٤.

(٣) المائدة ١٥.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٩٨.

(٥) البقرة ٧٥.

عقلوه ووعوه وقال السدي: هي التوراة حرفوها..»[1].

٢ ـ شهادة اليهود أنفسهم:

واليهود أنفسهم يشهدون أن التوراة التي في أيديهم قد أصابها التحريف فهم: «يقرون على أن السبعين كاهناً اجتمعوا على اتفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفاً من التوراة وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذين كانوا تحت قهرهم حيث زال الملك عنهم»[2].

واليهود على طوائف، منهم السامرة الذين يقيمون في مدينة نابلس لا يعترفون حتى اليوم إلا بالأسفار الخمسة (سفر التكوين، والخروج، والتثنية، واللاويين، والعدد) ويتهمون بقية الطوائف اليهودية أنها حرفت بقية الأسفار التي يصل عددها إلى ما لا يزيد عن خمسة وثلاثين سفراً[3].

وتتفق طائفة الصدوقيين من اليهود مع السامرة في عدم الاعتراف إلا بالأسفار الخمسة[4] بل نجد بعض الطوائف اليهودية تنكر المصنفات التي ألفها فقهاء اليهود وعلماؤهم لافترائهم على الله وعلى التوراة، يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله:

«هذه الأمة، الغضبيّة وإن كانوا مفترقين افتراقاً كثيراً يجمعهم فرقتان «القرابون والربانيون»، وكان لهم أسلاف وفقهاء وهم صنفوا لهم كتابين أحدهما يسمى (المشنا) والثاني يسمى (التلمود).. ولما نظر القرابون إلى المحاولات الشنيعة والافتراء الفاحش الكاذب على الله وعلى التوراة وعلى موسى وأن أصحاب التلمود والمشنا كذابون... اطرحوها كلها وألغوها»[5].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٨٠.

(٢) الجامع الفريد ـ هداية الحيارى ص ٥٨١.

(٣) جذور الفكر اليهودي ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٤) المصدر السابق ص ٦٣.

(٥) الجامع الفريد ـ هداية الحيارى ص ٦٠٧ ـ ٦٠٨ ـ ٦٠٩.

٣ ـ شهادة علماء الغرب:

وقد شهد علماء الغرب بالتحريف الذي أصاب التوراة، ومن هؤلاء موريس بوكاي إذ يقول:

يتكون العهد القديم من مجموعة أسفار لا تتساوى في الطول، وتختلف في النوع كتبت هذه الأسفار على مدى يربو على تسعة قرون، وبلغات مختلفة، واعتماداً على التراث المنقول شفوياً، وقد صححت وأكملت أكثرية هذه الأسفار بسبب أحداث حدثت، أو بسبب ضرورات خاصة، وفي عصور متباعدة أحياناً»[١].

وقال ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) وهو يجيب على سؤال طالما تحدث عنه العلماء الغربيون: متى وأين كتبت التوراة: «سؤال بريء لا خير منه، ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد»، ثم يستطرد قائلاً: «ويجب أن نفرغ منه هنا في فقرة واحدة نتركه بعدها من غير جواب»[٢].

وقال الدكتور إسكندر كيدس:

«ثبت لي بظهور الأدلة ثلاثة أمور جزماً:

الأول : أن التوراة الموجودة ليست من تصنيف موسى.

الثاني : أنها كتبت في كنعان أو أورشليم، يعني ما كتبت في عهد موسى.

الثالث : أن تأليفها بعد خمسمائة سنة من وفاة موسى.

٤ ـ النيل والطعن في ذات الله تعالى:

ومن الأدلة القوية التي لا ترد في إثبات التبديل والتحريف في التوراة ما جاء من نصوص في الأسفار وفيها نيل من ذات الله تعالى، وطعن في أسمائه الحسنى، وقدح في صفاته العظمى، من ذلك ما ورد في التوراة:

---

(١) دراسة في الكتب المقدسة ص ٢٣.

(٢) قصة الحضارة جـ ٢/ مجلد ص ٣٦٦ نقلاً عن المسيح في القرآن ص ٤٤.

(٣) إظهار الحق ١/١٠٨.

الله أنه قد كثر فساد الآدميين في الأرض، فندم الله على
تعالى الله عن إفك المفترين.

ومن ذلك ما جاء في التوراة المحرفة التي في أيدي اليهود[٢]، أن الله خلق السموات والأرض ثم استراح بعد ستة أيام، وقد أخبروا رسول الله ﷺ بذلك، فشق ذلك عليه فأنزل الله تكذيباً لهم: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا رمق لغوب﴾[٣].

ومن الأكاذيب والافتراءات التي ذكرت في التوراة وفيها طعن في ذات الله تعالى قولهم: «إن يعقوب قد سرق من أبيه صنماً ذهبياً، وأنه قد صارع الله فصرعه في مكان»[٤] يُدْعَىٰ إسرائيل بالقرب من نابلس، ولذلك سمي بإسرائيل.

تعالى الله عن هذا الافتراء، إن يقولون إلا كذباً.

٥ ـ القدح في الأنبياء:

ولو أردنا أن نعدد المخازي والسخائم والجرائم التي ألصقها الأحبار في التوراة بالأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم لضاق بنا المجال، وكأن مدوني التوراة كان عندهم ولع خاص بالحض على سفك الدماء، وهتك الأعراض، واغتصاب الأموال[٥].

من ذلك ما نسبوه إلى نص التوراة أنه لما أهلك الله قوم لوط عليه السلام، ولم ينج إلا لوط وابنتاه، قالت إحدى ابنتيه للأخرى: هلم نسقِ أبانا

---

(١) الجامع الفريد ـ هداية الحيارى ص ٢٨٢.
(٢) الدين الخالص ٢/٤٧٩.
(٣) ق.
(٤) جذور الفكر اليهودي ص ٧١.
(٥) المصدر السابق ص ٧٥.

خمراً ونضاجعه، لنستبقي من أبانا نسلاً[1].

وقولهم في التوراة إن يوسف عليه السلام حل سراويل سيدته وقعد منها مقعد الرجل من امرأته، فانشق الحائط ورأى أباه يعقوب عاضاً على أنامله[2].

ويزعم أحبار اليهود الدّجالون المفترون أن سليمان عليه السلام بنى على جبل صهيون هيكلاً للوثنية مقابل هيكل الرب، ووضع فيه أصناماً بعدد زوجاته الوثنيات إكراماً لهن وتقديراً[3].

ونالوا من هارون عليه السلام فقالوا عنه: إنه هو الذي صاغ لهم العجل[4].

بهذه الأدلة وسواها يتبين لنا مدى التحريف الذي أصاب التوراة، ذلك التحريف والتبديل الذي شهد به علماء اليهود والنصارى أنفسهم، وبذلك يظهر أنه ليس في أيدي أهل الكتاب من اليهود سند لكون الكتب الخمسة من تصنيف موسى عليه السلام، بل يجب علينا كمسلمين أن نعتقد اعتقاداً لا شك فيه ولا مرية أن جميع الأسفار التي في أيدي اليهود منسوبة كذباً وزوراً وبهتاناً إلى الصحف التي أنزلت على موسى عليه السلام.

* * *

ثانياً: تحريف الإنجيل:

يقسم أهل الكتاب كتبهم إلى قسمين، قسم منها يزعمون أنه وصل إليهم عن طريق الأنبياء الذين بعثوا قبل عيسى عليه السلام، وقسم آخر يزعمون أنه كتب ودوّن بالإلهام بعد عيسى عليه السلام، ومجموع الكتب من

---

(١) الدين الخالص ٢/ ٤٨٠، والجامع الفريد، هداية الحيارى ص ٥٨٢.

(٢) الدين الخالص ٢/ ٤٨١.

(٣) جذور الفكر اليهودي ص ٧٤.

(٤) الجامع الفريد، كتاب هداية الحيارى ص ٥٨٢.

القسم الأول يسمى بالعهد العتيق، ومن القسم الثاني بالعهد الجديد.

وينقسم كل من العهدين إلى قسمين:

أما القسم الأول من العهد العتيق فثمانية وثلاثون كتاباً منها سفر التكوين، وسفر الخروج وسفر الأحبار، وسفر العدد، وسفر الأستثناء، ومجموع هذه الكتب الخمسة يسمى التوراة وقد يطلق عليها كتب العهد العتيق مجازاً.

وأما القسم الأول من العهد الجديد فعشرون كتاباً منها: إنجيل متى، إنجيل مرقس إنجيل يوحنا، ويقال لهذه الأربعة: الأناجيل، ولفظ الإنجيل مختص بكتب هؤلاء الأربعة، وقد يطلق مجازاً على مجموع كتب العهد الجديد[1].

ـ دلائل تحريف الإنجيل:

١ ـ شهادة القرآن الكريم:

ولعل من أعظم الدلائل على تحريف الإنجيل وتبديله شهادة القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم، فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون، يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[2].

يكشف الله تعالى ما تواطأ أهل الكتاب من اليهود والنصارى على إخفائه من حقائق كتاب الله الذي معهم. . . فقد أخفى النصارى الأساس الأول للدين وهو التوحيد[3]، وأخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة التي نزلت على

---

(١) إظهار الحق ١/٩٥ ـ ٩٧.

(٢) المائدة ١٤ ـ ١٥.

(٣) في ظلال القرآن ٢/٨٦١.

موسى عليه السلام ومنها رجم الزاني، وتحريم الربا كافة، كما أخفوا جميعاً اليهود والنصارى خبر بعثة رسول الله ﷺ، «الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل»[1].

٢ ـ اعتراف النصارى:

والنصارى أنفسهم يعترفون أن الأناجيل التي في أيديهم ليست منزلة من عند الله تعالى على عيسى عليه السلام: «بل كلهم عن آخرهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة»[2]، وهذه الأناجيل الأربعة هي: إنجيل متى، ولوقا، ومرقس، ويوحنا.

فأما إنجيل متى فألفه متى اللاواني تلميذ المسيح بعد تسع سنين من رفع المسيح عليه السلام، وكتبه بالعبرانية في بلد يهوذا بالشام[3]، والإنجيل الآخر ألفه رجل يدعى مرقس بعد اثنين وعشرين عاماً من رفع المسيح، وكتبه باليونانية في بلد أنطاكية[4] من بلاد الروم، والإنجيل الثالث ألفه يوحنا بعد رفع المسيح ببضع وستين سنة، وكتبه باليونانية[5].

أما الإنجيل الأخير فقد ألفه لوقا الطبيب الأنطاكي، وكتبه باليونانية[6].

٣ ـ التناقض والاختلاف في الأناجيل:

ومن الدلائل على التحريف الذي أصاب الأناجيل وقوع التناقض والاختلاف والأخطاء فيها، والنماذج على هذا كثيرة.

من ذلك ما جاء في الباب الثامن من إنجيل مرقس أن رجلاً قال

---

(١)

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/١٣.

(٣) المرجع السابق ٢/١٣ ـ ١٤ وانظر إظهار الحق ١/١٢٩ ـ ١٣٠.

(٤) المصدر السابق ٢/١٤. وانظر الجامع الفريد ص ٥٢٣.

(٥) المصدر السابق ٢/١٤.

(٦) هداية الحيارى ص ٥٢٣ من الجامع الفريد. والفصل في الملل ٢/١٤.

للمسيح: أيها المعلم الصالح، فقال له المسيح لم تقول لي يا صالح، والله هو الصالح وحده. وفي الباب التاسع من إنجيل يوحنا أن المسيح قال: أنا الراعي الصالح. فمرة ينكر أن يكون صالحاً وأن لا صالح إلا الله، ومرة يقول: إنه صالح. وكل هذا كذب[1].

وفي الباب الرابع عشر من إنجيل متى أن المسيح قال لهم: أتاكم يحيى وهو لا يأكل ولا يشرب... وفي الباب الأول من إنجيل مرقس: إن يحيى بن زكريا عليهما السلام هذا كان طعامه الجراد، والعسل الصحراوي.

وهذا تناقض، وأحد الخبرين كذب بلا شك[2].

ومن هذه التناقضات ما جاء في الباب الخامس من إنجيل يوحنا قول المسيح: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً»، وفي الباب الثامن من الإنجيل نفسه جاء قول المسيح: «وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق»[3].

ومن تلك الاختلافات والمغالطات التي وقعت في ثنايا الأناجيل الأربعة المذكورة الاختلاف في نسبة المسيح عليه السلام[4]، فمتى صاحب إنجيل متى ينسب المسيح إلى يوسف النجار ثم ينسب يوسف إلى الملوك من ولد سليمان بن داود عليهما السلام أباً فأب... ولوقا صاحب إنجيل لوقا ينسب يوسف النجار إلى آباء غير الذين ذكرهم متى.. ولا بد ضرورة أن يكون أحد النسبين كذباً لوقا ومتى لأن المسيح عيسى عليه السلام خلقه الله تعالى من أم بلا أب.

٤ ـ شهادة علماء النصارى:

ولقد شهد شهود من علماء النصارى بالتحريف الذي أصاب الأناجيل

---

(١) انظر الفصل في الملل والنحل ٢/١٣٧.
(٢) المصدر السابق ٢/٧٣.
(٣) إظهار الحق ١/١٧٧ ـ ١٧٨.
(٤) الفصل في الملل والنحل ٢/٣٣.

ومن هؤلاء موريس بوكاي، فبعد أن تكلم بإسهاب عن المتناقضات بين الأناجيل الأربعة «متّى، يوحنا، لوقا مرقس» ختم كلامه بقوله:

«فخيالات متّى، والمتناقضات الصارخة بين الأناجيل، والأمور غير المعقولة، وعدم التوافق بين معطيات العلم الحديث، والتحريفات المتوالية للنصوص كل هذا يجعل الأناجيل تحتوي على إصحاحات وفقرات تنبع من خيال الإنسان وحده»[1].

وينفي العالم النصراني (كلي شيس) أن تكون الأناجيل التي في أيدي النصارى وحياً من الله تعالى فيقول:

«إن مرقس ومتّى يتخالفان في التحرير، وإذا اتفقا ترجح قولهما على قول لوقا. . . ومعنى هذا أن الأناجيل ليست إلهامية ولا معنى لترجيح إنجيل على آخر»[2].

وقد أشارت دائرة المعارف البريطانية إلى هذا المعنى، فقد جاء فيها:

«قد وقع النزاع في أن كل قول متدرج في الكتب المقدسة هل هو إلهامي أم لا؟ فقال كثيرون من العلماء: إنه ليس كل قول فيها إلهامياً»[3].

وينفي العالم النصراني (كولمان) الأساس التاريخي للأناجيل فيقول:

«إطار الأناجيل المتوافقة كل هذا أدبي الطابع، وليس له أساس تاريخي»[4].

٥ ـ مخالفة النصارى للمسيح:

ومن البراهين والأدلة الواضحة على التبديل والتزوير اللذين وقعا في

(١) دراسة في الكتب المقدسة ص ١٣١.
(٢) إظهار الحق جـ ١/٢٨٩.
(٣) دائرة المعارف البريطانية مجلد ١١/٣٧٤ نقلاً عن إظهار الحق جـ ١/٢٧٨.
(٤) دراسة في الكتب المقدسة ص ٧٥.

الأناجيل مخالفة النصارى أنفسهم لتعاليم المسيح عليه السلام، فالختان والاغتسال من الجنابة، وتعظيم السبت، وتحريم الخنزير، وتحريم ما حرمته التوراة إلا ما أحل لهم بنصها. . ثم آل الأمر بعد ذلك إلى أن استحلوا الخنزير، وأحلوا السبت، وعوضوا منه الأحد، وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة.

ولم تسلم صلاتهم من التلاعب وكان هذا من وجوه[٢]:

أحدها: صلاتهم بالنجاسة والجنابة، والمسيح بريء من هذه الصلاة.

ومنها: صلاتهم إلى مشرق الشمس ومعلوم أن عيسى عليه السلام إنما كان يصلي إلى بيت المقدس.

* * *

٣ ـ القرآن الكريم:

أ ـ تعريفه:

القرآن في الأصل مصدر على وزن فُعْلان بالضم كالغفران والسكران. . تقول: قرأته قرءاً وقرآناً بمعنى واحد، أي تلوته تلاوة، وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى: ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾، ثم صار علماً شخصياً لذلك الكتاب الكريم، وهذا هو الاستعمال الأغلب، ومنه قوله تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾[٣].

وقد روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن كما روعي في تسميته

---

(١) أنظر الدين الخالص ٢/٤٦٢، والفصل في الملل ٢/٤٩.
وإلى الفريد كتاب هداية الحيارى ص ٦١٦.

(٢) الدين الخالص ٢/٤٦٩.

(٣) الإسراء ٩.

كتاباً كونه مدوناً بالأقلام [1].

ب ـ دلائل حفظه من التحريف:

والدلائل على حفظ القرآن الكريم من العبث والتحريف والتبديل كثيرة أذكر منها ما يلي:

١ ـ تكفل الله بحفظه:

لقد قرر الله تعالى في كتابه الكريم أنه هو الذي أنزل الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل، ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [2]، وقد شهد بحفظه من أي تحريف أو تزييف علماء اليهود والنصارى أنفسهم، من ذلك ما رواه ابن القيم أن يهودياً تكلم في مجلس المتوكل فأحسن الكلام، فدعاه المتوكل إلى الإسلام فأبى، ثم غاب اليهودي عن الخليفة مدة ثم دخل إلى مجلسه وهو يعلن الإسلام، فقال له المتوكل: أسلمت؟ قال: نعم، قال: ما سبب إسلامك؟ فقال له: لما قطعت من عنقي قلادة التقليد وصرت من رتبة الاجتهاد إلى مرتقى ما عليه مزيد، نظرت في الأديان وطلبت الحق حيث كان، فأخذت التوراة فنظرت فيها، وتدبرت معانيها، وكتبت بخطي، وزدت فيها، ونزلت السوق وبعتها، فلم ينكر أحد من اليهود منها شيئاً.

وأخذت الإنجيل وزدت فيه ونقّصت، ودخلت به السوق وبعته، فلم ينكر أحد من النصارى منه شيئاً.

وأخذت القرآن، وقرأته وتأملته فإذا فيه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ فكتبت فيه وزدت ونقصت، ودخلت به السوق وبعته، فنظر فيه المسلمون، فعرفوا المواضع التي زدت فيها وانقصت وردوا كل كلمة إلى

---

(١) النبأ العظيم ص ١٢.

(٢) الحجر ٩.

موضعها، وكل حرف إلى مكانه، فعلمت أنه الحق، وهو كلام الله الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)، وصدقت ما جاء به[1].

وحفظ الله للقرآن الكريم من أعظم ما يمتاز به هذا الكتاب العظيم خلافاً للكتب السماوية الأخرى التي لم تسلم ـ كما رأينا ـ من التحريف والتبديل وانقطاع السند لأن الله لم يتكفل بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى: ﴿ والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ﴾[2]، أي بما طلب إليهم حفظه، والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأن هذا القرآن جيء به مصدّقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليه، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الغائبة، زائداً عليها فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة»[3].

٢ ـ طريقة حفظه وتدوينه:

ومن أعظم الأدلة على حفظ القرآن الكريم من العبث والتحريف طريقة حفظه في عهد رسول الله ﷺ وتدوينه ثم جمعه ونسخه في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما.

فقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على حفظ ما ينزل عليه حرصاً جعله يسابق الملك ويعجل بتلاوة ما أنزل عليه قبل أن يفرغ ويحرك به لسانه، فأنزل الله تعالى: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾.

وكان صحابة رسول الله ﷺ يتسابقون إلى حفظ القرآن واستظهاره وقراءته

---

(١) نقلاً عن كتاب: أسرار التعبير في القرآن. د. / عبد الفتاح لاشين ص ١٦ ـ ١٧.

(٢) المائدة ٤٤.

(٣) النبأ العظيم ص ١٣ ـ ١٤.

في غدوهم ورواحهم، وكان يسمع لهم دوي بالقرآن في غسق الدجي كدوي النحل، روىٰ الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار.

وقد حفظ القرآن في عهد رسول الله ﷺ جموع غفيرة تجاوز عددهم المئات، قال: القرطبي: قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل في عهد النبي ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد[1].

وممن حفظه من المهاجرين: الخلفاء الراشدون الأربعة، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله ابن عباس، وعبد الله بن عمر، ومعاوية، وممن حفظه من الأنصار: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل، وأنس بن مالك، وأبو الدرداء.

وممن حفظه من الصحابيات: عائشة، وحفصة، وأم سلمة[2].

ويرى ابن الجزري أن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة... وقد جاء في صفة أمته: أنا جيلهم صدورهم، وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظون إلا في الكتب، ولا يقرؤونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب[3].

ومع ذلك فإن عناية الرسول وصحابته بالقرآن فاقت كل عناية فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه، وقد اتخذ رسول الله ﷺ كتاباً للوحي، وكلما نزل من القرآن الكريم شيء أمرهم بتدوينه وكتابته زيادة في التوثيق والضبط والاحتياط في كتاب الله تعالى حتى تظاهر

---

(١) علوم القرآن والتفسير ص ٣٤.

(٢) الاتقان ١/٩٠.

(٣) مناهل العرفان ١/٢٣٥.

الكتابةُ الحفظَ، ويعاضدُ النقّشُ اللفظَ[1].

وكان كتاب الوحي من خيرة صحابة رسول الله، وقد بلغ عددهم كما ذكر الحافظ العراقي اثنين وأربعين كاتباً[2]، ومن أشهرهم الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت وأبي بن كعب، ومعاوية ابن أبي سفيان.

وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه عندما استشهد عدد كبير من الصحابة الحفاظ في معركة اليمامة أمر زيد بن ثابت أن يتتبع القرآن ويجمعه، وقد اختاره الخليفة للقيام بهذه المهمة لصفات أربعة عرف بها زيد:

١ ـ كونه عاقلاً فيكون أوعى له.

٢ ـ كونه شاباً فيكون أنشط لما يطلب منه.

٣ ـ كونه لا يتهم، فتركن النفس إليه.

٤ ـ كونه كان يكتب الوحي، فيكون أكثر ممارسة له[3].

ومع اتصاف زيد بن ثابت رضي الله عنه بهذه الصفات العظيمة فإنه لم يكن يكتفي بأن يوافق حفظ غيره حفظه، بل كان يطلب مع ذلك شيئاً مكتوباً، ويطلب من يشهد له على أن هذه الكتابة كانت بين يدي رسول الله ﷺ. قال الليث ين سعد: وكان زيد لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل»[4].

من كل ما سبق يتبين لنا أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي نال من الرعاية والعناية والحفظ والدقة في الكتابة والتدوين ما لم ينله كتاب سماوي أو بشري على سطح الكرة الأرضية، وهذا ما شهد به أعداء الإسلام، يقول: (موير):

---

(١) علوم القرآن والتفسير ص ٢٧.

(٢) لمحات في علوم القرآن ص ٦٧.

(٣) المرجع السابق ص ٧٠.

(٤) الاتقان ١/٥٧.

«إن المصحف الذي جمعه عثمان بن عفان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجمالي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يُعَدُّ أكبر حجة ودليل على صحة النص الموجود معنا»(١).

٣ ـ التوافق بين القرآن الكريم واكتشفات العلم الحديث:

أثبت العالم الغربي موريس بوكاي في كتابه (دراسة في الكتب المقدسة) التحريف الذي أصاب الأناجيل والتوراة وذلك من خلال التناقضات والأخطاء التي ذكرت فيها، تلك التناقضات والأخطاء التي لا تتفق مع معطيات العلم الحديث في القرن العشرين، فبعد أن تحدث عن الأدوار التي مرت على العهد القديم (التوراة) قال:

«في سفر التكوين توجد أكثر المتناقضات وضوحاً مع العلم الحديث وتخص هذه التناقضات ثلاث نقاط جوهرية: خلق العالم ومراحله، تاريخ خلق العالم وظهور الإنسان على الأرض، رواية الطوفان»(٢) وأسهب هذا العالم في ذكر نماذج من الآيات القرآنية الكريمة التي تضمنت إشارات علمية عظيمة لم يصل إليها إلا العلم الحديث. وأثبت التوافق بين تلك الآيات ومعطيات العلم في هذا العصر الذي نعيش فيه، وعلق على بعض تلك الإشارات العلمية بقوله:

«كيف أمكن لمحمد عليه الصلاة والسلام أن يتناول قبل أربعة عشر قرناً حقائق علمية في القرآن الكريم لم يكشفها إلا التقدم العلمي في القرون

---

(١) مدخل إلى القرآن ـ د. / محمد عبد الله دراز ص ٤٠.

(٢) دراسة في الكتب المقدسة ص ٤٠.

الحديثة لو لم يكن القرآن وحياً منزلاً لا شك فيه»[1].

ومن هذه الحقائق العلمية الإشارة إلى مراحل نمو الجنين كما في قوله: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلنا نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضقة، فخلقنا المضقة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين»[2].

«ولم يكشف التشريح وعلم الأجنة عن هذه المراحل إلا في العصر الحديث»[3].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين»[4].

فالرياح عامل عظيم في نقل حبوب اللقاح إلى الأعضاء المؤنثة في النبات ليتم بذلك عقد الثمار، والرياح كذلك تلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر. والرياح تسوق السحب إيجابية التكهرب وتلقي بها في أحضان السحب سالبة التكهرب فيحدث الرعد والبرق والمطر[5].

* * *

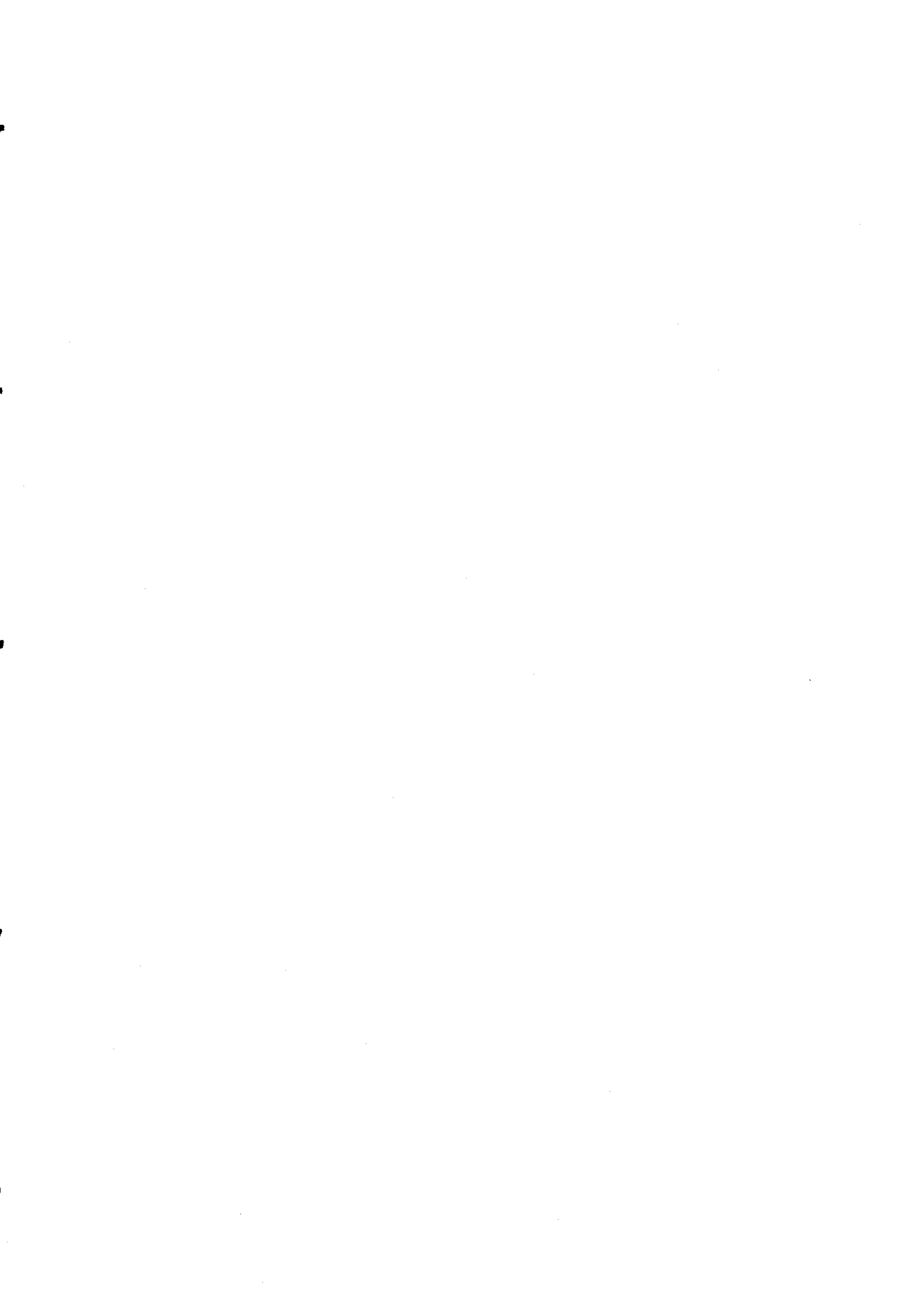
(١) المرجع السابق ص ٢٧٧.
(٢)
(٣) مقرر علم التوحيد ـ عمر قطب ١٦٣.
(٤) الحجر ٢٢.
(٥) عقيدة المسلم ـ السائح ص ٢٧١.

الفصل الرابع
الإيمان بالرسل

وفيه مبحثان:

المبحث الأولى : الإيمان بالرسل.

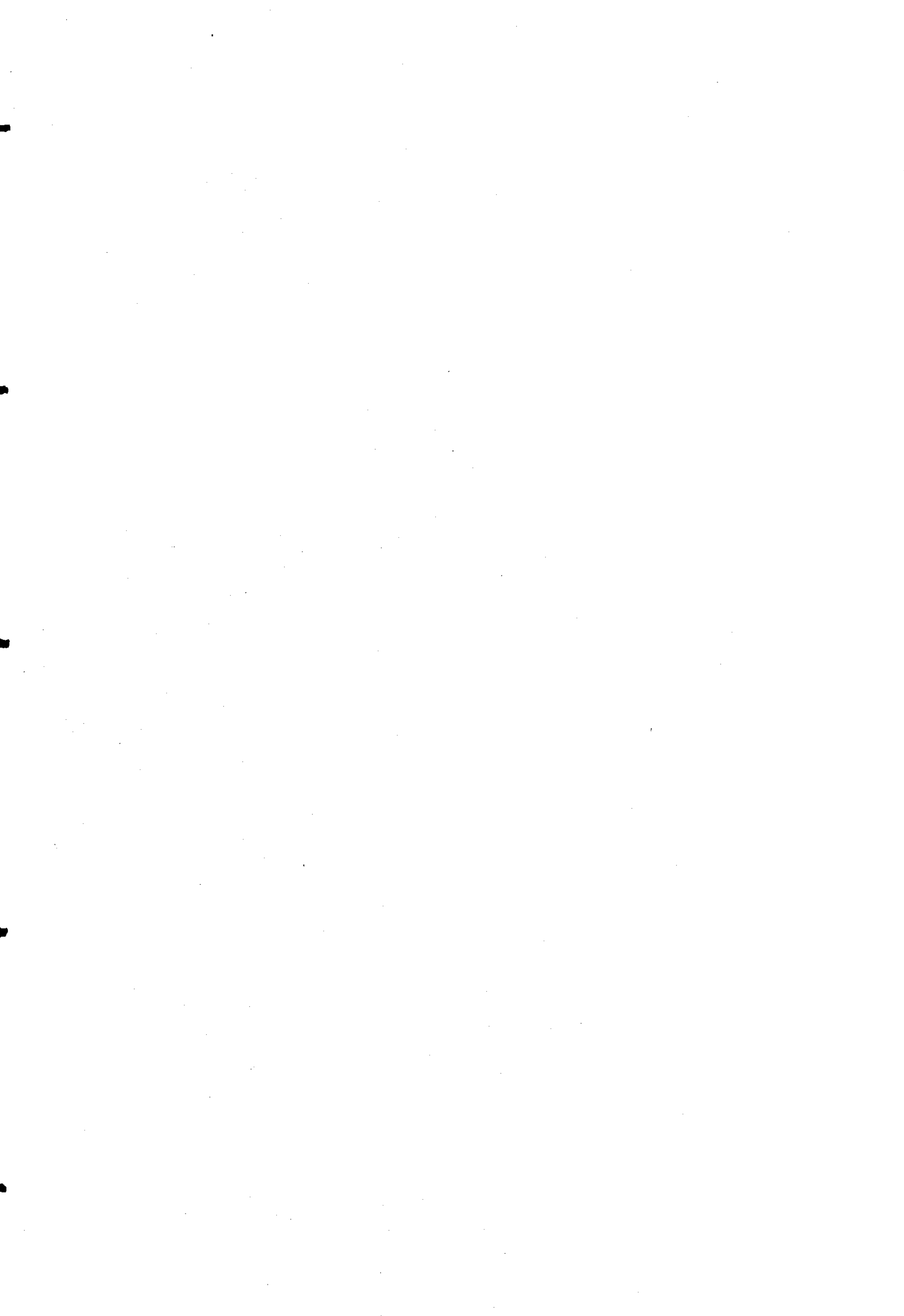
المبحث الثاني : دلائل نبوة محمد ﷺ.



المبحـث الأول

الإيمـان بالرسـل

- وجوب الإيمان بالرسل.
- عدد الرسل.
- الفرق بين النبي والرسول.
- الحكمة من إرسال الرسل.
- وحدة دعوات الرسل.
- صفات الرسل.



المبحــث الأول
الإيمان بالرسل عليهم السلام

١ - وجوب الإيمان بالرسل:

الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان لا يتم إيمـان المؤمن إلا به، ولا تصح عقيدته الإسلامية إلا إذا اعتقد بهذا الركن.

والمراد بالإيمان بالرسل أن يؤمن بهم إجمـالاً وتفصيلاً، ومعنى الإيمـان بهم إجمـالاً أن يؤمن المسلم بكـل نبي ورسـول عـرفت نبـوتـه أم لم تعـرف، ومعنى الإيمان بهم تفصيلاً أن يؤمن بكل نبي ورسول أخبر الله عنه عن طـريق الوحي، وقد بيّن الله تعالى وجوب الإيمان بالأنبيـاء والرسـل في كتابـه الكريم فقال سبحانه: ﴿ ليس البّر أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البّـر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين ﴾[١].

ومن موجبات الإيمان بالرسل أن يؤمن المرء بالرسالات كلها، إذ يستوي عند الله من أنكر الرسل والأنبيـاء جميعاً، ومن أنكـر واحداً منهم بعينـه، يقول الله تعـالى: ﴿ إنّ الـذين يكفـرون بـالله ورسله ويـريـدون أن يفـرقـوا بين الله ورسله، ويقـولون نؤمن ببعض ونكفـر ببعض ويـريـدون أن يتخـذوا بين ذلـك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾[٢].

* * *

(١) البقرة ١٧٧.

(٢) النساء ١٥٠ - ١٥١.

٢ ـ عدد الرسل:

ويجب أن يعلم المؤمن أن الله تعالى أرسل الرسل إلى جميع الأمم في بقاع الأرض انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾[١]، ﴿ ولكل أمة رسول ﴾[٢]، ﴿ ولكل قوم هادٍ ﴾[٣].

ولقد كان عدد الأنبياء والرسل جمعاً غفيراً، منهم من ذكرهم الله تعالى ومنهم من لم يذكره وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة ﴿ منهم من قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصص عليك ﴾[٤].

عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يا رسول الله كم كانت الأنبياء وكم كان المرسلون؟ قال: كانت الأنبياء مائة ألف نبي وعشرين ألف نبي، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر»[٥] قال القرطبي بعد أن ذكر هذا الحديث:

«قلت: هذا أصح ما روي في ذلك»[٦].

والرسل الذين ذكرهم الله في كتابه خمسة وعشرون رسولاً، منهم ثمانية عشر في أربع آيات متتالية من سورة الأنعام، ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء، إن ربك حكيم عليم، ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين، وزكريّا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضّلنا على العالمين ﴾[٧].

---

(١) فاطر ٦٣.
(٢) يونس ٤٧.
(٣) الرعد ٧.
(٤) غافر ٧٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٩.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٩.
(٧) الأنعام ٨٣ ـ ٨٦.

والسبعة الآخرون هم: آدم، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب وذو الكفل ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه.

* * *

٣ ـ الفرق بين النبي والرسول:

هل هناك فرق بين النبي والرسول؟ هذه مسألة مشكلة اختلف فيها العلماء قديماً وحديثاً[١] قال الفخر الرازي في تفسيره:

«من الناس من قال: الرسول هو الذي حدث وأرسل، والنبي هو الذي لم يرسل ولكنه ألهم أو رأى في النوم، ومن الناس من قال:

إن كل رسول نبي، وليس كل نبي يكون رسولاً، وقالت المعتزلة:

«كل رسول نبي، وكل نبي رسول، ولا فرق بينهما»[٢].

وقال الماوردي في إعلام النبوة:

«اختلف أهل العلم في الأنبياء والرسل على قولين:

أحدهما: أن الأنبياء والرسل واحد، فالنبي رسول، والرسول نبي..

والقول الثاني: إنهما يختلفان.. واختلف من قال بهذا في الفرق بينهما على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الرسول هو الذي تتنزل عليه الملائكة بالوحي، والنبي هو الذي يوحي إليه في نومه.

والقول الثاني: أن الرسول هو المبعوث إلى أمة والنبي هو المحدث الذي لا يبعث إلى أمة.

---

(١) أنظر في هذه المسألة مفصلاً: مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٠/٢٩٠ وما بعدها ومفاتيح الغيب ٢٣/٤٨ ـ ٤٩، والجامع لأحكام القرآن ١٢/٨٠.
وإعلام النبوة للماوردي ص ٣٧ ـ ٣٨ وتاريخ الأنبياء ص ١٤ ـ ١٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٣/٤٨ ـ ٤٩.

والقول الثالث: أن الرسول هو المبتدىء بوضع الشرائع والأحكام، والنبي هو الذي يحفظ شريعة غيره[1].

والصحيح الذي عليه الجمّ الغفير[2] من أهل العلم أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، وهذا ما أثبته شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: «النبي هو المنبأ عن الله والرسول هو الذي أرسله الله تعالى، وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً»[3]، والفرق بين الأنبياء والرسل أن الرسول يكون صاحب الشريعة، والأنبياء بعثوا على شرائع تلك الرسل[4].

* * *

٤ ـ الحكمة من إرسال الرسل:

إن من رحمة الله على عباده أنه لم يتركهم لأنفسهم يتبعون السبل، وتدفعهم الأهواء، وتتنازعهم الشهوات، وتجمح بهم العقول العاجزة القاصرة دون أن يكون لهم منهج منزل عليهم من السماء ينير لهم الظلمات وتصلح به الحياة، وتطمئن به القلوب، وتستهدي به العقول، ولهذا اقتضت رحمة الله وحكمته أن يرسل إلى عباده رسلاً يحملون أمانة تبليغ رسالات الله، وذلك لأمور كثيرة، منها:

١ ـ إن الغاية الأساسية من خلق الله للبشر أن يؤمنوا به، ويعبدوه، وكيف يعرف الإنسان ربه الحق؟ وكيف يعبده العبادة الحقة؟ ولا يتم هذا إلا عن طريق رسل يصطفيهم الله من بين عباده، وينزل عليهم منهجاً يعرفهم بربهم المعرفة الحقة، ويجعلهم يعطون الطاعة لله، ويعبدونه حق العبادة.

والأمم حينما تقطع صلتها بمنهج السماء الذي جاء به الرسل فإنها حينئذٍ

---

(١) إعلام النبوة ص ٣٧ ـ ٣٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٨٠.
(٣) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٩٠.
(٤) الفقه الأكبر ص ٤٩.

تعيش حياة كلها ظلمات وجاهليات، ظلمات في تصوراتها لذات الله وأسمائه وصفاته، ظلمات في شعائرها التعبدية التي تبتدعها من عند أنفسها، ظلمات في الجانب الخلقي والعقلي والاجتماعي . .

«انظر إلى ضلالات البشرية في أمر ربها خلال التاريخ كيف تصورته، وكيف عبدته؟ مرة تصورته في قرص الشمس كما فعلت الجاهلية الفرعونية، ومرة تصورته في النار الملتهبة كما فعلت الجاهلية الفارسية، ومرة تصورته على هيئة بشر ذي خصائص فائقة كما فعلت الجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية . . فوجدت الأرباب الصغيرة مع رب الأرباب، تقوم ببعض اختصاصاته سبحانه، فإله للمطر، وإله للبرق، وإله للريح، وإله للبحر، وإله للخصب . .»[1].

ولو نظرنا إلى حال العرب في الجاهلية مثلاً لأدركنا حاجة البشر إلى إرسال الرسل يعرفونهم بربهم المعرفة الحقة، ومن ثم يعبدونه العبادة الحقة.

لقد بلغ ضلال المعتقدات عند العرب قبل البعثة أن كل أهل دار اتخذ في داره صَنَمَاً يعبده، فإذا أراد الرجل سفراً تمسح به، وإذا قدم من سفره تمسح به[2]. وفي الصحيح عن أبي رجاء العطاردي قال: كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب، وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا بها[3].

فهذه صور من جاهلية العرب في جانب العقيدة، فماذا عن ضلالاتهم في جانب العبادة؟ من صور هذه الضلالات أن الرجال كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون ويصفقون رغبة منهم أن يتطهروا من الذنوب[4].

---

(١) مقرر علم التوحيد. محمد قطب ص ٧.

(٢) البداية والنهاية مجلد ١ جـ ٢/١٩٢ ط ١/١٩٦٦.

(٣) المصدر السابق مجلد ١ جـ ٢/١٨٨.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٣٥٩.

وماذا أيضاً عن ضلالاتهم ومفاسدهم الاجتماعية والخلقية؟.

ويكفي هنا أن أنقل حديث السيدة عائشة رضي الله عنها فيه وصف حقيقي لحال العرب في الجاهلية قبل الإسلام، تقول رضي الله عنها:

«إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء، نكاح منها كنكاح الناس اليوم، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الرجل، فكان هذا نكاح الاستبضاع.. ونكاح آخر يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان.. فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع الرجل. والنكاح الرابع: يجتمع النساء الكثير على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها جمعوا له، ودعوا لهم القافة، ثم الحقوا ولدها بالذي يرون»[1].

هذه هي حياة العرب في الجاهلية قبل الإسلام.. جاهلية في العقيدة، جاهلية في العبادة، جاهلية في الأخلاق... بل جاهلية في كل شيء، ومن هنا تتضح لنا رحمة الله وحكمته في بعث رسول الله ﷺ بهذه الرسالة الإسلامية لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ب ـ إن العقول البشرية عاجزة عن إدراك حقيقة العوالم الغيبية كعالم الآخرة وما يتصل به من حقائق كالبعث والجزاء والحساب والجنة والنار، وعالم الملائكة وما يتصل بالمادة التي خلقوا منها، وأعمالهم وما يجوز في

(١) رواه البخاري.

حقهم وما لا يجوز، وعالم الجن والشياطين. . وسواها من العوالم.

وكما أن خير منهج لمعرفة ذات الله وأسمائه وصفاته هو منهج الله المنزّل على الرسل فإن خير منهج كذلك لمعرفة هذه العوالم الغيبية هو منهج الله نفسه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«إن العلوم الإلهية وعلوم الديانات لا يمكن أن يقام عليها أدلة عقلية، فالرسل هدوا الخلق وأرشدوهم إلى دلالة العقول عليها، فهي عقلية شرعية، ونوع آخر من العلوم لا يعلم عنها إلا بخبر الرسل»[(١)].

٣ ـ إن البشرية لا تستطيع أن تحيا بدون منهج تعود إليه في حياتها الاقتصادية والمالية والخلقية والاجتماعية، وينظم شؤون الأسرة والمجتمع والدولة، ويبين الحلال والحرام.

وهذا المنهج إما أن يكون من وضع عقلاء البشر وفلاسفتهم ومفكريهم، وإما أن يكون منزلاً من عند الله؟ وهل بوسع المصلحين والفلاسفة والمفكرين والعباقرة أن يبدعوا منهجاً تصلح به الحياة البشرية على مر العصور والأجيال؟.

«إن الفلاسفة ليست شريعتهم واحدة، ولا دينهم واحداً، بل آراؤهم مختلفة، وأقوالهم متناقضة تورث لأتباعهم حيرة قلما تنجلي غمرتها. . ولو قرأت فلسفة الهنود والرومان والإغريق وتطورات الفلسفة الإنسانية عامة في القديم والحديث لما تجاوزت بها أبداً حدود البحث الحائر وراء الحقيقة الغامضة»[(٢)].

ثم إن وضع منهج صالح لحياة البشرية يتطلب ـ كما يقول الأستاذ

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٢١٠ ـ ٢١١.

(٢) عقيدة المسلم ـ محمد الغزالي ص ١٨٠ ـ ١٨١.

محمد قطب ـ ما يلي :

أولاً : معرفة حقيقية كاملة بالكيان البشري ذاته، والإنسان على الرغم من كل العلم المادي الذي عرفه ما يزال شديد الجهل بكيانه.

ثانياً: يحتاج إلى إحاطة كاملة بماضي الجنس البشري وحاضره ومستقبله والتجارب التي خاضها وأسبابها ونتائجها، وهذا يستحيل استحالة كاملة على الإنسان لأن كثيراً من أحداث الماضي والحاضر عاجز عن الإحاطة بها، أما المستقبل فهو غيب موصد أمامه.

ثالثاً: ثم إنه يحتاج إلى أن يكون واضع المنهج غير متحيز، لا مصلحة له في أمر من الأمور ولا هوى ولا شهوات، وهذا أمر لا يتوفر في الإنسان أصلاً... ومن ثم فإن المنهج الصالح لا يمكن أن يأتي إلا من مصدر واحد وهو الله. فالله هو الذي يعلم حقيقة الإنسان لأنه هو الذي خلقه ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[2]، والله هو الذي يعلم كل شيء في حياة البشر وفي الكون كله علم إحاطة واطلاع، ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾[3]، والله هو الذي شرع التشريع الحكيم لأنه هو الغني القادر، وليس محتاجاً إلى شيء عند الناس، وهو الواهب لهم كل شيء.

د ـ إن الله تعالى لو لم يرسل الرسل للبشر لقال العصاة والمنحرفون يوم القيامة لله سبحانه كيف تعذبنا ونحن لا نعلم الطريق الذي يرضيك لنتبعه، ولا نعلم الطريق الذي يغضبك فنجتنبه؟.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا بقوله تعالى :

---

(١) أنظر مقرر علم التوحيد ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) الملك ١٤.

(٣) يونس ٦١.

﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾[١].

* * *

٥ ـ وحدة دعوات الرسل:

إن دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام واحدة في الأصول، وتشمل هذه الأصول وحدة الدين والتوحيد والعبادة والحلال والحرام، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾[٢].

فأما دين الرسل جميعاً فدين واحد هو الإسلام، وإليه أشار رسول الله ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، والأنبياء إخوة لعلات، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي»[٣]، ولا يقبل الله ديناً غيره، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾[٤]، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[٥]، وقال عن المسيح وحواريه: ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون ﴾[٦]، وأثبت الله تعالى هذا في آية جامعة فقال: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[٧].

كذلك فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوا إلى توحيد الله في ألوهيته

---

(١) النساء ١٦٥.
(٢) الشورى ١٣.
(٣) مجموع الفتاوى ٣/ ٩٠.
(٤) البقرة ١٣١.
(٥) يونس ٨٤.
(٦) المائدة ١١١.
(٧) آل عمران ١٩.

وعبوديته قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[1]، فنوح عليه السلام دعا إلى عبادة الله وحده ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله ﴾[2]، وهود عليه السلام دعا إلى إفراد الله بالألوهية والعبادة ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾[3]، وصالح دعا قومه كذلك إلى توحيد الله في الألوهية والعبادة ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ [4].

وهذه الآيات القرآنية تدحض ما ذهب إليه بعض المفكرين والباحثين كالأستاذ العقاد والدكتور مصطفى [5] محمود عن تطور العقيدة الإلهية من عبادة الطوطم (وهو مرة طائر، ومرة ثعلب، ومرة عجل..) إلى عبادة الأحجار إلى عبادة النجوم إلى عبادة الآلهة المتعددة، ففكرة الإله الواحد ممثله في الشمس وهي أكبر ما ترى العين في السماء.

كذلك فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوا إلى أداء شعائر تعبدية واحدة من حيث أصولها كالصلاة والصيام والزكاة، وقد أشار القرآن الكريم إلى وحدة دعوات الرسل في هذا الجانب، فالصيام فريضة فرضها الله على هذه الأمة الإسلامية وكانت مفروضة على من كان قبلها من الأمم، يقول الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[6]، فالله سبحانه كتب صوم رمضان على كل أمة[7].

---

(١) الأنبياء ٢٥.
(٢) هود.
(٣) هود ٥٠.
(٤) هود ٦١.
(٥) عقيدة المسلم ـ عبد الحميد السائح ص ١٦.
(٦) البقرة ١٨٣.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٢٧٤.

والصلاة شعيرة تعبدية فرضها الله على الرسل جميعاً، فموسى عليه الصلاة والسلام أوصاه الله تعالى حين كلمه في طور سيناء بالصلاة فقال: ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾[1]، وتحدث القرآن الكريم عن صفات إسماعيل عليه السلام، فذكر أن من صفاته الحميدة التي كان يتحلى بها أمرُه لأهله بالصلاة ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ﴾[2]، كما أن عيسى عليه السلام حين كلم قومه في المهد قال كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ﴾[3].

قال القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا . . ﴾[4]. «المعنى أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام . . »[5].

ودعوة الرسل إلى فعل الخيرات والصالحات، واجتناب الفواحش والرذائل دعوة واحدة، فالله تعالى أوصى الأنبياء جميعاً بالصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى والأذية للخلق، والاعتداء على الحيوان واقتحام الدناءات، وتوفية الميزان والمكيال، وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

* * *

---

(١) طه ١٤.

(٢) مريم ٥٤ ـ ٥٥.

(٣) مريم ٣١.

(٤) الشورى ١٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٦١.

٦ ـ صفات الرسل:

من صفاتهم.

أ ـ البشرية:

إن الرسل بشر يجوز في حقهم ما يجوز في حق البشر، فهم يولدون كما يولد البشر، ويموتون كما يموت البشر، ويتزوجون ويأكلون ويشربون مثلهم، وهم لا يختلفون عن سواهم من البشر في أجسادهم، ولا في تصوير أعضائهم ولا في جريان دمائهم، ولا في حركات قلوبهم[١].

ويجوز للرسل أن يتعرضوا للصحة والمرض، والقوة والضعف، ويجوز أن يقتلوا أو أن يهزموا إلا أنهم لا يتعرضون لما ينفر الناس منهم من الآفات والأمراض[٢].

قال الله تعالى مشيراً إلى بعض صفات الرسل البشرية: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾[٣]، وقال سبحانه عن أيوب عليه السلام: ﴿ وأيوب إذ نادى ربّه أني مسّني الضّر وأنت أرحم الراحمين ﴾[٤]، وقال عزّ شأنه عن رسول الله ﷺ: ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾[٥].

والحكمة في جعل الرسل بشراً ينطقون بلغة أقوامهم أنهم جاؤوا ليربوا طائفة من الناس على الحق، يكون الرسول بنفسه قدوة لهم، ويكونون هم بدورهم قدوة للناس كما قال تعالى: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم، وتكونوا

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام ص ١٨٩.
(٢) عقيدة المسلم ـ السائح ص ٢١٤.
(٣) الفرقان ٢٠.
(٤) الأنبياء ٨٣.
(٥) آل عمران ١٤٤.

شهداء على الناس ﴾[1]، وهذه القدوة العملية لا تتحقق إلا إذا كان الرسل بشراً كما قال عزّ شأنه: ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً؟ ﴾[2].

وفي بشرية الرسل عليهم السلام بيان وإثبات أنه ليس فيهم شيء من الألوهية، فالألوهية لله وحده، وهم عباد الله تعالى، وقد وصف الله رسوله محمداً ﷺ بصفة العبودية في مقامات عظيمة سامية إثباتاً لبشريته ونفياً للألوهية عنه، فقال تعالى في مقام إسرائه: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . . ﴾.

وقال عنه في مقام الوحي: ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾[3]، ووصفه بصفة العبودية في مقام تكليفه بالدعوة ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه. . ﴾[4].

ومن بشرية الرسل أنهم قد لا يصيبون في الأمور الدنيوية فيما لا علاقة لها بالتبليغ والتشريع كما جاء في حديث الإمام مسلم، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بقوم يلقحون، فقال: لو لم تفعلوا لصلح، فخرج شيصاً،فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ فقالوا: قلت: كذا وكذا، قال: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

ب ـ العصمة:

عصمة الله للرسل هي «الحصانة التي يمنحها لهم حتى يكونوا بمأمن من الانزلاق إلى الخطيئة، وحتى لا تستطيع الشرور والآثام أن تجد سبيلاً إلى نفوسهم، مبرئين من العيوب والنقائص»[5].

ومن عصمة الرسل أنهم لا يخطئون في مجال التبليغ من الله، وفي بيان

---

(١) الحج ٧٨.
(٢) الإسراء ٩٣.
(٣) النجم ١٠.
(٤) الجن ١٩.
(٥) تاريخ الأنبياء ص ٣٣.

الشريعة لأن الرسول لا ينطق عن الهوى ﴿ إن هو إلا وحي يوحي ﴾[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«إن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله، وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة.. بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين كما عصم الأنبياء ولو كانوا أولياء الله، وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة»[٢].

ومن عصمة الرسل كذلك أنه يستحيل عليهم أن يأتوا بمعصيه، أو ما يجرح العدالة، أو يخل بالمروءة، أو ينافي الكمال لأن الله جعلهم قدوة للناس، وقد اصطفاهم الله واختارهم من عباده، وأضفى عليهم من العناية والرعاية ما يجعلهم أهلاً لتحمل أمانة الرسالة، قال تعالى عن الخليل إبراهيم: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين ﴾[٣]، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾[٤]، وقال عن رسول الله ﷺ: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[٥].

والحكمة من العصمة عن المعاصي والآثام أن اتِّبَاعُهم واجبٌ في بيانهم، والاعتقادُ لازمٌ في أقوالهم وأفعالهم، وجواز وقوع المعاصي فيهم يمنع الاتباع فيؤدي إلى إبطال الشرائع، وذلك فاسد لا محالة[٦].

جـ ـ التبليغ:

ومن أبرز الصفات التي يتحلى بها الرسل عليهم الصلاة والسلام صفة

---

(١) النجم ٤.
(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٢٨٩ ـ ٢٩٠.
(٣)
(٤) طه ٤١.
(٥)
(٦) الفقه الأكبر ص ٥١ ـ ٥٢.

التبليغ، والمراد منها «أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه فلا يخفي منه شيئاً ولا يكتمه بحال من الأحوال، فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضاً مما أوحى إليه، وأمر بإبلاغه إلى الناس»[1].

ومن مظاهر التبليغ أن الرسل مكلفون ببيان الرسالة للناس الذين أرسلوا إليهم في أشد المواقف وأخطرها على حياتهم، ومع ذلك فإنهم يصدعون بكلمة الحق، وبيان الباطل، دون أن تأخذهم في الله لومة لائم. من ذلك أن موسى عليه السلام أمره الله مع أخيه هارون عليه السلام أن يأتيا فرعون ويدعوانه إلى الهدى بلا خوف أو وجل، ودون حساب للعاقبة: ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى.. ﴾[2].

ومن صور التبليغ أن الرسل لا ييأسون من الدعوة إلى الله، ولا يخلدون إلى الراحة وإنما يتحركون بدعوتهم باذلين في سبيل إيصالها إلى الناس كل جهد واستطاعه، فهذا نوح عليه السلام يدعو قومه في الليل والنهار، والسر والعلن فلم يزدد قومه إلا كفراً وطغياناً، قال تعالى: ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً.. ﴾[3].

ويتعرض الرسل وهم في طريق الدعوة إلى الله للإيذاء في شتى صوره وأشكاله، وتعرض بين أيديهم الإغراءات الدنيوية فيعرضون عنها، ويمضون في الدعوة إلى الله، لا يلتفتون إلى السخرية والاستهزاء والاتهامات، ولا يبالون بمحاولات القتل التي قد يتعرضون لها، فهذا رسول الله ﷺ يأتيه عتبة بن ربيعة ويقول[4]:

---

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٢٠.

(٢) طه ٤٧.

(٣) نوح ٥ - ٦.

(٤)

يا ابن أخيَ! إن كنت إنما تريد مالاً بما جئت به من هذا الأمر جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال:

- أقد فرغت يا أبا الوليد؟.
- قال: نعم.
- قال: فاسمع مني.
- قال: أفعل.
- فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون»[1].

ومن صبره ﷺ على الإيذاء الذي تعرض له ما رواه الطبراني عن منبت الأزدي قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب ومنهم من سبه حتى انتصف النهار، فأقبلت ابنته زينب بماء فغسل وجهه ويديه وقال يا بنَّيه لا تخشي على أبيك غيلة ولا ذلة»[2].

د ـ الفطانة:

ومن صفات الرسل الأساسية التي يتصفون بها صفة الفطانة، وهي: «الصفة اللازمة للتبليغ، إذ الرسول معرض وهو يقوم بعملية التبليغ لمناقشات الخصوم، أو لتساؤلات الأتباع، أو لاعتراضات المشككين وانتقاداتهم، فلا بد أن يكون من الذكاء، وقوة البيان ما يستطيع به أن يبهت الآخرين، فلا تقوم

---

(١)
(٢) الرسول ـ سعيد حوى جـ ١/٨٨.

لهم حجة، إذا لو قامت لهم حجة لما كان له عليهم سلطان»[1].

والشواهد على فطانة الرسل كثيرة، منها أن الخليل إبراهيم عليه السلام دخل على الآلهة التي كان يعبدها قومه من دون الله فحطمها وجعلها قطعاً صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة إلا كبير الأصنام فقد تركه ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾.

وفي هذا الحوار الذي دار بين الخليل وقومه دليل وبيان على فطانته، والحجة التي آتاه الله إياها ليقابل بها هؤلاء الذين عطلت الخرافة عقولهم عن التفكير، قال تعالى: ﴿ قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم، قال: بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾[2].

إن التهكم والسخرية واضح في جواب إبراهيم عليه السلام، فهذه التماثيل لا إدراك لها ولا تفكير لا تدري من جعلها جذاذاً، أهو الخليل نفسه أم هذا الصنم الكبير؟.

«ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هزاً، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكر فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون»، وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف.. ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام، «ثم نكسوا على رؤوسهم، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون».

وحقاً لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس.. كانت الأولى حركة في النفس للنظر والتدبر، أما الثانية فكانت انقلاباً على الرأس فلا عقل ولا تفكير»[3].

---

(١) الرسول ـ سعيد حوى جـ ١١٦/١.

(٢) الأنبياء ٦٢ ـ ٦٥.

(٣) في ظلال القرآن ٢٣٨٧/٤.

وإنها لحجة قوية وهبها الله لإبراهيم عليه السلام استطاع بها أن يقنع قومه وبشهادتهم هم أن التماثيل التي عكفوا على عبادتها، وهي لا تعقل ولا تنطق ـ لا تستحق العبادة.

ومن الشواهد على فطانة رسولنا ﷺ مناقشته لوفد من نصارى نجران في أمر عيسى عليه السلام. قالوا: من أبوه؟ «أي عيسى، يريدون أن يقيموا الحجة بهذا السؤال على أنه ابن الله تعالى الله عن ذلك».

فرد عليهم رسول الله بما يلي:

قال: ألستم تعلمون أن الله حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟».

قالوا: بلى.

قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟».

قالوا: بلى.

قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟».

قالوا: لا.

قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟».

قالوا: بلى.

قال: «فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم؟».

قالوا: لا.

قال: «ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يحدث الحدث؟».

قالوا: بلى.

قال: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يتغذى الصبي، ثم كان يأكل الطعام،

ويشرب الشراب، ويحدث الحديث؟».

قالوا: بلى.

قال: «فكيف يكون هذا كما زعمتم»[1].

هـ ـ الالتزام بتطبيق ما يدعون إليه:

إن دعوة الأنبياء والرسل ليست مجرد أحكام وأوامر ونواه نظرية، إنها إلى جانب ذلك تطبيق عملي، والرسل هم القدوة للناس في عصورهم في إحالة تلك الأوامر والنواهي إلى تطبيق عملي في سلوكهم وأخلاقهم، في معاملاتهم وصلاتهم مع الناس، في أقوالهم وأفعالهم إنهم القدوة العملية في كل شيء.

واختار هنا نموذجين اثنين لا أريد بهما الاستقصاء فالمجال هنا لا يتسع لذلك، فأما النموذج الأول فهو من حياة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فلقد كان أعظم صفة عرف بها هي صفة الاستسلام لله، كما قال تعالى: ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾[2].

ولقد أحال الخليل هذه الصفة العظيمة التي اتصف بها إلى تطبيق عملي حينما أمره ربه في المنام أن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾[3].

إنه أعظم صورة من صور الإيمان والطاعة والاستسلام لله.. لقد أسلم، وهذا هو الإسلام في حقيقته، ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم وتنفيذ، وهذه المشاعر لا يصنعها إلا الإيمان العظيم[4].

وأما النموذج الثاني فمستمد من حياة نبينا صلوات الله وسلامه وعليه،

---

(١) الرسول ـ سعيد حوى جـ ١/ ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢)

(٣) الصافات ١٠٢.

(٤) في ظلال القرآن جـ ٥/ ٢٩٩٦.

قال تعالى مخاطباً رسوله: ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾[1]، جاء في الحديث المتفق عليه عن عائشة قالت: «كان رسول الله يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً».

---

(1)

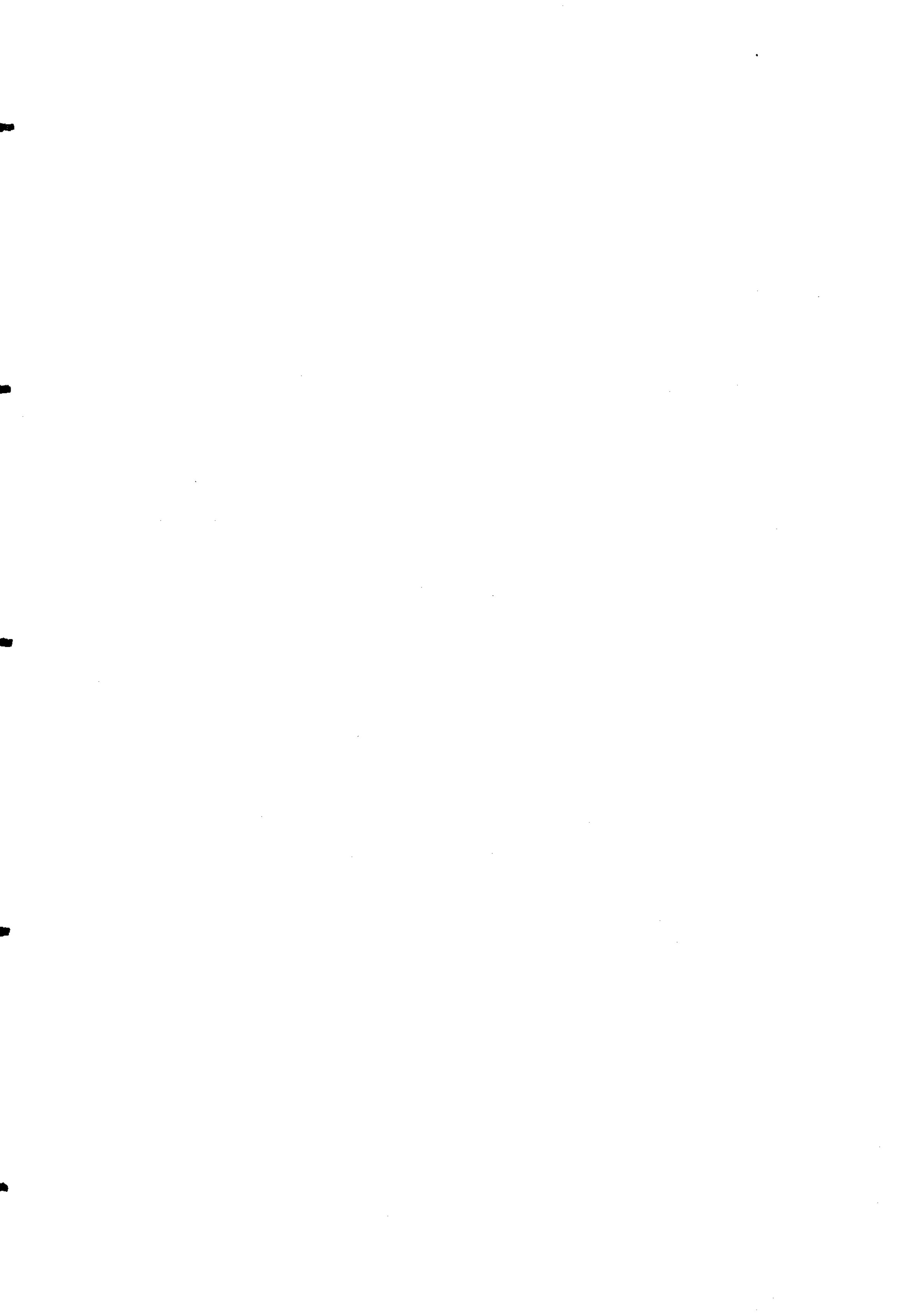
المبحث الثاني

دلائل نبوة محمد ﷺ

أولاً : دلائل النبوة.

- معجزة القرآن الكريم.
- البشارات وشهادات علماء اليهود والنصارى.
- خلقه.
- نبوءاته.
- أحاديثه التي صدقتها علوم العصر.

ثانياً : ختم الرسالات والنبوات.



المبحث الثاني
دلائل نبوة رسول الله

أولاً: دلائل النبوة:

إن دلائل نبوة رسول الله ﷺ كثيرة متنوعة، ولم تثبت لنبي معجزة أو آية كما تثبتت للرسول ﷺ: ﴿ من جهة صحة النقل وضبط الأخبار وتوثيقه، ومن جهة نوع المعجزة ودلالتها ﴾[1].

والمعجزة كما عرفها شيخ الإسلام «يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل، ويسمونها الآيات، لكن كثيراً من المتأخرين يُفرق في اللفظ، فيجعل المعجزة للنبي، والكرامة للولي وجماعهما الأمر الخارق للعادة»[2].

والأمور الخارقة للعادة ستة أقسام هي[3]:

١ ـ المعجزة : وتظهر على يدي الرسول بعد دعوى الرسالة، وهي ترجع إلى ثلاثة معانٍ، إما إيجاد معدوم كخروج الناقة من

---

(١) مختصر إثبات نبوة محمد ص ٢٢.

(٢) مجموع الفتاوى ١١/٣١١ ـ ٣١٢.

(٣) عقيدة المسلم ـ السائح ـ ص ٢٢٥.

الصخر، وإما إعدام موجود كإبراء الأكمه، وإما تحويل الموجود كقلب العصا ثعباناً.

٢ ـ **الإرهاصُ** : ما يتقدم بعثة الرسول سواء قام بالنبي نفسه أم بغيره.

٣ ـ **المعونة** : ما تظهر على يد العوام تخليصاً لهم من ضيق أو شدة.

٤ ـ **الكرامة** : أمر خارق للعادة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح والاستقامة.

٥ ـ **الاستدراج** : ما يظهر على يد فاسق خديعة أو مكراً.

٦ ـ **الإهانة** : ما يظهر على يد فاسق تكذيباً له كتفل مسيلمة الكذاب في عين أعور فعميت الصحيحة.

وقد أعاد ابن تيمية رحمهُ الله المعجزات إلى صفتي العلم والقدرة فقال:

«صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم، والقدرة، والغنى، وإن شئت أن تقول: العلم والقدرة.. وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله وحده، فما كان من الخوارق من باب العلم فتارة بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، أو يرى ما لا يرى غيره، وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره وما كان من باب القدرة فهو التأثير.

أما العلم والأخبار الغيبية فمثل إخباره عن الأنبياء والمتقدمين وأممهم، وكذلك إخباره عن الربوبية والملائكة والجنة والنار... وكذلك إخباره الأمور المستقبلية.

وأما القدرة والتأثير كانشقاق القمر، ومعراجه إلى السموات، وتكثيره الطعام[1].

وسأشير في هذا الموضع إلى أهم الدلائل وأبرزها التي تثبت نبوة رسول الله ﷺ، ويمكن ذكرها فيما يأتي:

---

(١) مجموع الفتاوى ٣١٢/١١ إلى ٣١٦.

١ ـ معجزة القرآن الكريم :

لقد اختار الله تعالى أن يكون هذا القرآن الكريم معجزة رسول الله ﷺ ويتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم في بيانه وفصاحته وبلاغته ونظمه فلن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[١].

وقد شهد العرب أنفسهم بإعجاز القرآن الكريم البياني وهم من أرباب الفصاحة، وأمراء البيان، وفرسان الشعر، من ذلك أن الوليد بن المغيرة اجتمع هو ونفر من قريش فقال لهم :

إن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بصاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً، ولا تختلفوا فيه فيكذب بعضكم بعضاً.

قالوا : أنت فقل، وأقم لنا رأياً نقول فيه.

قال : بل أنتم فقولوا، أسمع، فقالوا : نقول : كاهن.

فقال : ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن وسحره.

قالوا : نقول مجنون.

فقال : ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا : نقول شاعر.

قال : ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر رجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا : نقول ساحر.

قال : ما هو بساحر، قد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده.

---

(١) الإسراء ٨٨.

قالوا: فما نقول: يا أبا عبد شمس؟.

قال: والله! إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمغدق، وإن فرعه لمثمر، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه[1]

وقد مضى الحديث عن هذا الوجه من الإعجاز في مبحث الكتب السماوية فليرجع إليه في موضعه.

٢ ـ البشارات وشهادة علماء اليهود والنصارى:

ومن دلائل نبوته ﷺ البشارات التي حملتها الكتب السماوية السابقة وشهادة علماء اليهود والنصارى.

فقد بشرت التوراة برسول الله ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[2].

فأهل اليهود يعرفون نبوة رسول الله ﷺ وصدق رسالته كما قاله مجاهد وقتادة[3].

واكتفي هنا بذكر شهادة حبر من أحبار اليهود هو عبد الله بن سلام، فقد روى البخاري في صحيحه أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله، فأتاه:

فقال: إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي؟.

قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟.

فقال: رسول الله ﷺ: أخبرني بهن آنفاً جبريل.

فقال: عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة.

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى ـ ابن الجوزي ١/ ٢٦٥ بشيء من التصرف.

(٢) البقرة ١٤٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٦٢.

فقال رسول الله : أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها، قال عبد الله بن سلام أشهد أنك رسول الله . .

كذلك فإن الإنجيل بشر برسول الله ﷺ، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾[1] .

وجاء في إنجيل يوحنا:

«إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من (الأب) فسيعطيكم معزياً (فارقليط) آخر ليمكث معكم إلى الأبد»[2] .

والفارقليط ترجمته محمد وأحمد.

وعلماء النصارى لهم من الشهادات برسالة رسول الله ﷺ ما لا يسعه المقام واختار شهادتين اثنتين، فأما الشهادة الأولى فهي شهادة راهب عمورية وصاحبها حينما لقيه سلمان الفارسي فقال له:

«قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم الخليل، يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بها نخل، به علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل»[3] .

وأما الشهادة الثانية فهي شهادة النجاشي حينما وصله كتاب رسول الله ﷺ فرد عليه بقوله:

---

(١) الأعراف ١٥٧ .

(٢) عقدية المؤمن ـ الجزائري ـ ص ٢٤٧ .

(٣) محمد في الكتب المقدسة ـ د . / محمد رواس قلعة في ص ٩ طبع دار السلام.

«إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر ـ سلام عليك يا نبي الله . . لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت . . فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين»[1].

ولقد شهد علماء أهل الكتاب بصدق نبوة رسول الله في هذا العصر، فهذا الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل يقول في كتابه (الأبطال وديانة الأبطال) :

«أي شيء أكبر دلالة على صدق من يدعي لك أنه بنّاء ماهر بنى بيديه مثلاً داراً تقاوم العوادي ـ أكثر من ألف ومائتي عام، وهي تسع نحو مائتي مليون من الأنفس «في عهد كارليل»، كذلك لا شيء أكبر دلالة على صدق نبوة محمد من أن يؤسس ديانة يجد فيها نحو مائتي مليون من الأنفس غذاءهم الروحاني، وتقاوم عوامل التحليل في مدى أكثر من اثني عشر قرناً . . فماذا يراد من الأدلة بعد ذلك على نبوته؟»[2].

ويقول الكونت هنري دي كاستري الفرنسي في كتاب (الإسلام تأثرات ومباحثات) :

« . . وأما مسألة الوحي بالقرآن فكيف يتأتى أن تصدر تلك السور والآيات عن رجل أمي يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى»[3].

ومما يدعو إلى العجب والدهشة أن كتب زرادشت التي اشتهرت

---

(١) عقيدة المؤمن ـ الجزائري ـ ص ٢٥١ .

(٢) محمد رسول الإسلام ـ عبد الوهاب ـ ص ٢٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦ ـ ٢٨ .

باسم[1] الكتب المجوسية تبشر بنبي الإسلام، فقد جاء في كتاب (زندافستا) وصف لرسول الله ﷺ أنه رحمة للعالمين، ويتصدى له يسمى بالفارسية القديمة ابن لهب، ويدعو هذا الرسول إلى إله واحد، لم يكن له كفواً أحد، وليس له أول ولا آخر، ولا صاحب، ولا أم ولا أب، ولا صاحبه، ولا ولد.. . وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الإسلام.

وجاء في كتاب (يهوشيا بران) وهو من كتب الهندوس:

«إن رجلاً جاء في المنام إلى الملك (يهوج) ملك السند، فقال له:

عليك أن تلحق بدين رجل ظهر في الصحراء، وهو مختون، له كلام يسمع، تظهر على يديه معجزات كثيرة، وهو محفوظ من أعدائه، اسمه محامد، يعني كثير الحمد»[2].

وفي هذه البشارات دلالة واضحة على أن ديانة الهندوك وكذا ديانة زرادشت هما أثران من آثار ديانة سماوية قديمة، وقد ذكر القرآن الكريم أن الله أرسل إلى كل أمة رسولاً ﴿ وإن من أمة إلا فيها نذير ﴾[3].

٣ ـ خلقه:

ومن دلائل نبوة رسول الله ﷺ خلقه، وقد وصفه الله بقوله: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾، ويحدد رسول الله مهمته من البعثة فيقول ﴿ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ﴾، ويبين رسول الله ﷺ قيمة حسن الخلق في الإسلام فيقول في حديث رواه أبو داود «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».

واختار نماذج من أخلاقه العظيمة لتكون شاهد صدق على نبوته.

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي ـ العدد ٢٥٦ ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ ص ٢٩.
(٢) مجلة الوعي الإسلامي ـ العدد ٢٥٦ ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ ص ٢٩.
(٣) فاطر ٢٤.

وقف رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم بدر يعدل صفوف أصحابه وفي يده قدح، فمر سواد بن غذيه وهو متقدم من الصف، فطعن رسول الله في بطنه بالقدح، وقال: استويا سواد، قال: يا رسول الله، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني، فكشف رسول الله عن بطنه، وقال: استقد[١].

وجاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ جلس تحت ظل شجرة يستريح في غزاة له، فعلق سيفه في أحد أغصانها ونام، فجاء أعرابي من المشركين، فاخترط السيف وقال للرسول: من يمنعك اليوم مني يا محمد؟ فرفع إليه رسول الله رأسه وقال: الله، ـ فارتاع الرجل، وسقط السيف من يده، فتناوله الرسول وقال: من يمنعك أنت الآن مني؟ فقال الأعرابي: لا أحد، فعفا عنه رسول الله وانصرف.

وإن في سيرة رسول الله ﷺ مواقف تدل على رحمته العامرة، وشفقته العظيمة «يفيض قلبه بالرحمة فيبكي، وتدمع عيناه، وقد يسمع صوت بكائه، إنها نفس تجيش جيشاناً ببحار الرحمة»[٢].

يُؤذَىٰ صلوات الله وسلامه عليه ويضرب ولا تفارقه الرحمة فيقول:

«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وبلغت رحمته أن قال كما جاء في الحديث المتفق عليه:

«إني لأدخل الصلاة، وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من وجد أمه من بكائه».

واتسعت دائرة رحمته ﷺ حتى تشمل الحيوان، فعن عبد الرحمن بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله في سفر، فرأينا حمرة (طائر مثل العصفور)

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٣١٠.

(٢) الرسول ـ سعيد حوى جـ ١ /١٤٣.

معهـا فرخـان لها فـأخذنـاهما فجـاءت الحمـرة تـعـرش (ترفـرف) فلمـا جـاء الرسول ﷺ قال: «من فجع هذه بولدها، ردوا ولدها إليها».

وصفة بينة كانت ولا تزال على مـر الأجيال بـادية واضحـة في طبعه ﷺ تلك هي: التياسر والتواضع.. لقد كان رسول الله سهلاً هيناً يلقى أبعد الناس وأقربهم وأصحابه وأعداءه وأهل بيته ووفود الملوك بلا تصنع ولا تكلف(١).

بلغ من تواضعه ﷺ أنه كان مرة في سفر مـع أصحابـه فأرادوا أن يهيئـوا لهم طعاماً، فقسم العمل بينهم، فقام يجمع الحطب، فأرادوا أن يكفوه ذلك، فـأبى. ولما وقف عليـه أعرابي يـرتجف خشيةً ذكـره أنه ابن امـرأة من قـريش كانت تأكل القديد.

وخرج على جماعة من أصحابه فقامـوا له، فقـال: لا تقومـوا كما تقـوم النصارى يعظم بعضهم بعضاً.

فهذه نماذج من أخلاقه ﷺ إن دلت على شيء فـإنما تـدل على أن هذه الأخلاق العظيمة التي عرف بها إنما هي أخلاق نبوة ورسالة.

٤ ـ نبوءاته:

كلمـة النبـوءة تعني الإخبـار عن الغيب أو المستقبـل بـإلهـام من الله، ونبوءات رسول الله ﷺ التي تؤكد صدق نبوته كثيرة منها:

- روى البخاري أن رسول الله قال: إذا هلك كسرى فـلا كسرى بعـده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والـذي نفس محمد بيـده لتنفقن كنوزهمـا في سبيل الله.

وتحققت نبوءة رسول الله بعد وفاته، فهلك كسرى فلا كسرى بعده، وهلك قيصر فلا قيصر بعده وارتفعت راية الإسلام فوق بلاد فارس والشام.

---

(١) بطل الأبطال ـ عبد الرحمن عزام.

- وعن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسئل: أي المدينتين تفتح أولاً ـ القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتاباً، فقال عبد الله بينما نحن حول رسول الله نكتب إذا سئل رسول الله: أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله: «مدينة هرقل تفتح أولاً»[١].

وفي رواية ثانية للإمام أحمد «لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

وقد تم فتح القسطنطينية على يد القائد المسلم محمد الفاتح الثاني سنة ١٤٥٣ م.

- وعندما خرج رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه من مكة مهاجراً إلى المدينة تبعه سراقة بن مالك بغية أن يدرك رسول الله، ويفوز بالجائزة وقدرها مائة ناقة، وكان سراقة يركب فرسه، وعندما اقترب من رسول الله ساخت أقدام فرسه في الأرض ثم انبعث دخان كالإعصار عندما نزعها، فاستغاث سراقة فدعا له رسول الله ﷺ، فانطلق الفرس، وأخبره رسول الله بأنه سيلبس سواري كسرى في ذراعيه»[٢].

وقد تحقق ذلك بعد مضي ستة عشر عاماً في عهد عمر بن الخطاب فاستدعى سراقة عقب سقوط المدائن عاصمة فارس، وألبسه سواري كسرى.

وفي هذه النبوءات دليل على صدق نبوة رسول الله.

٥ ـ أحاديث رسول الله التي صدقتها علوم العصر:

هناك طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ تناولت قضايا جاءت العلوم في العصر الحديث تثبت صحتها، وفيها دلالة صادقة على أنه نبي يوحى إليه من

---

(١) مسند الإمام أحمد والحاكم والسلسلة الصحيحة للألباني جـ ١ / رومية.

(٢) البداية والنهاية جـ/ ص.

عند الله، إذ ليس بوسعه وهو الرسول الأمي الذي عاش في بيئة عربية أمية أن يسبق علماء العصر بمئات السنين في الإشارة إليها ومن هذه الأحاديث النبوية ما جاء في كتب السنّة عن عائشة أن فاطمة بنت أبي حيش سألت رسول الله ﷺ فقالت: إني استحاض فلا أطهر، أفأدع الصلاة؟ فقال: لا، إن ذلك دم عرق، ولكن دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها ثم اغتسلي وصلي».

إن دم الحيض يخرج من رحم المرأة كأثر من آثار عدم تلقيح بويضة الأنثى بماء الذكر، والدم الذي يخرج منها في هذه الحالة يسمى دم حيض، وفاطمة بنت أبي جيش تعاني من خروج الدم منها دائماً، فظنت أنه دم الحيض، فأخبرها رسول الله أنه ليس دم حيض، ولكنه نزيف عرق.

وقد أثبت العلماء المتخصصون صحة ما قاله رسول الله ﷺ قبل ألف وأربعمائة عام حينما بينوا أن الدم الوحيد الذي يخرج من الرحم هو دم الحيض والنفاس، أما الدم الآخر فمرجعه إلى نزيف يحدث في بعض الأغشية مما لا علاقة له بالرحم»[1].

ومثال آخر من هذه الأحاديث النبوية ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب».

ولقد نشر الدكتور (جراد فِنتسر) في مجلة كوسموس الألمانية مقالاً تحت عنوان (الأخطار التي تنشأ عن اقتناء الكلاب والاقتراب منها) أن الأخطار التي تهدد الكلاب بها صحة الإنسان لا يستهان بها لأنها تصاب بدودة شريطية تتعداها إلى الإنسان، وتصيبه بأمراض خطيرة قد تصل إلى حد العدوان على حياته.

---

(١) الرسول ـ سعيد حوى جـ ١/ ٤١.

ومن كشوفات العصر استخراج كثير من مبيدات الجراثيم من التراب، وخاصة تراب المقابر فمثلاً التتراسكلين، والنيوماتسين وكلها من مبيدات الجراثيم - استفيد من التراب في استخراجها لوجودزيفانَ في جراثيمه يقضي على أنواع من الجراثيم الأخرى»[1].

* * *

ثانياً: ختم الرسالات والنبوات:

من خصائص الرسالة المحمدية أنها خاتمة لرسالات السماء وناسخة لكل الشرائع التي جاء بها الأنبياء من عند الله، وأن الناس جميعاً مأمورون بالإيمان بهذه الرسالة الإسلامية التي جاء بها رسول الله من عند الله.

فاليهود وهم أهل كتاب أمروا بالإيمان برسول الله، والنصارى وهم أهل كتاب أمروا بالإيمان برسالته، والناس جميعاً على مختلف ألوانهم وأشكالهم وجنسياتهم وألوانهم ولغاتهم مأمورون جميعاً بالإيمان به ﷺ، والاعتقاد أن محمداً ﷺ خاتم الرسل لا رسول بعده، خاتم النبيين لا نبي بعده.

والأدلة على ختمه ﷺ للنبوات والرسالات جاء ذكرها في القرآن الكريم والسنّة النبوية.

● **الأدلة من القرآن الكريم:**

يقول الله سبحانه «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شيء عليماً»[2]، فهذه شهادة من عند الله تثبت حقيقة ختم رسول الله لرسالات الأنبياء فلا يبقى بعد هذا البيان الإلهي شيء من الريب والشك في أنه ﷺ به ختمت الرسالات.

ويقول عزّ وجلّ: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي

---

(١) المرجع السابق جـ ١/٤٥ - ٤٦.

(٢) الأحزاب.

ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾[1]، فقد نزلت هذه الآية الكريمة يوم عرفة في حجة الوداع سنة عشر للهجرة، روى البخاري في صحيحه أنه قال:

قالت اليهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إنكم تقرأون آية لو نزلت علينا لاتخذناها عيداً، فقال عمر رضي الله عنه: إني لأعلم حيث أنزلت، وأين نزلت وأين رسول الله ﷺ إنها نزلت يوم عرفة[2].

قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ هو الإسلام أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً[3].

● **الأدلة من السنّة النبوية:**

والأدلة من السنّة النبوية على ختم رسول الله ﷺ للرسالات كثيرة، منها:

ما رواه البخاري أَن رسول الله ﷺ قال: إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

وروى البخاري أيضاً في صحيحه أنه ﷺ قال:

«لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»[4].

ورواه مسلم وزاد: «أنا العاقب الذي ليس بعده أحد»[5].

---

(١)

(٢) البخاري.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/١٢.

(٤) صحيح البخاري ٤/٢٢٥، مطابع الشعب.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي مجلد ٥ ص ٢٠١ مطابع الشعب.

وقـال: رسـول الله ﷺ: «فضلت على الأنبيـاء بست: أعـطيت جـوامـع الكلم، ونصـرت بـالـرعب وأحلت لي الغنـائم وجعلت لي الأرض طهـوراً ومسجداً وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»(١).

وروى البخاري أن رسول الله حين خـرج إلى تبوك استخلف عليـاً فقال رضي الله عنـه: «أتخلفني في الصبيـان والنسـاء؟ فقـال رسـول الله ﷺ: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي؟»(٢).

فهذه الأدلة من القرآن الكريم والسنّة النبوية لا تدع مجالاً لأدنى شك أن محمـد بن عبد الله ﷺ ختم الله بـه النبـوات والـرسـالات جميعـاً فـلا نبي ولا رسول بعده.

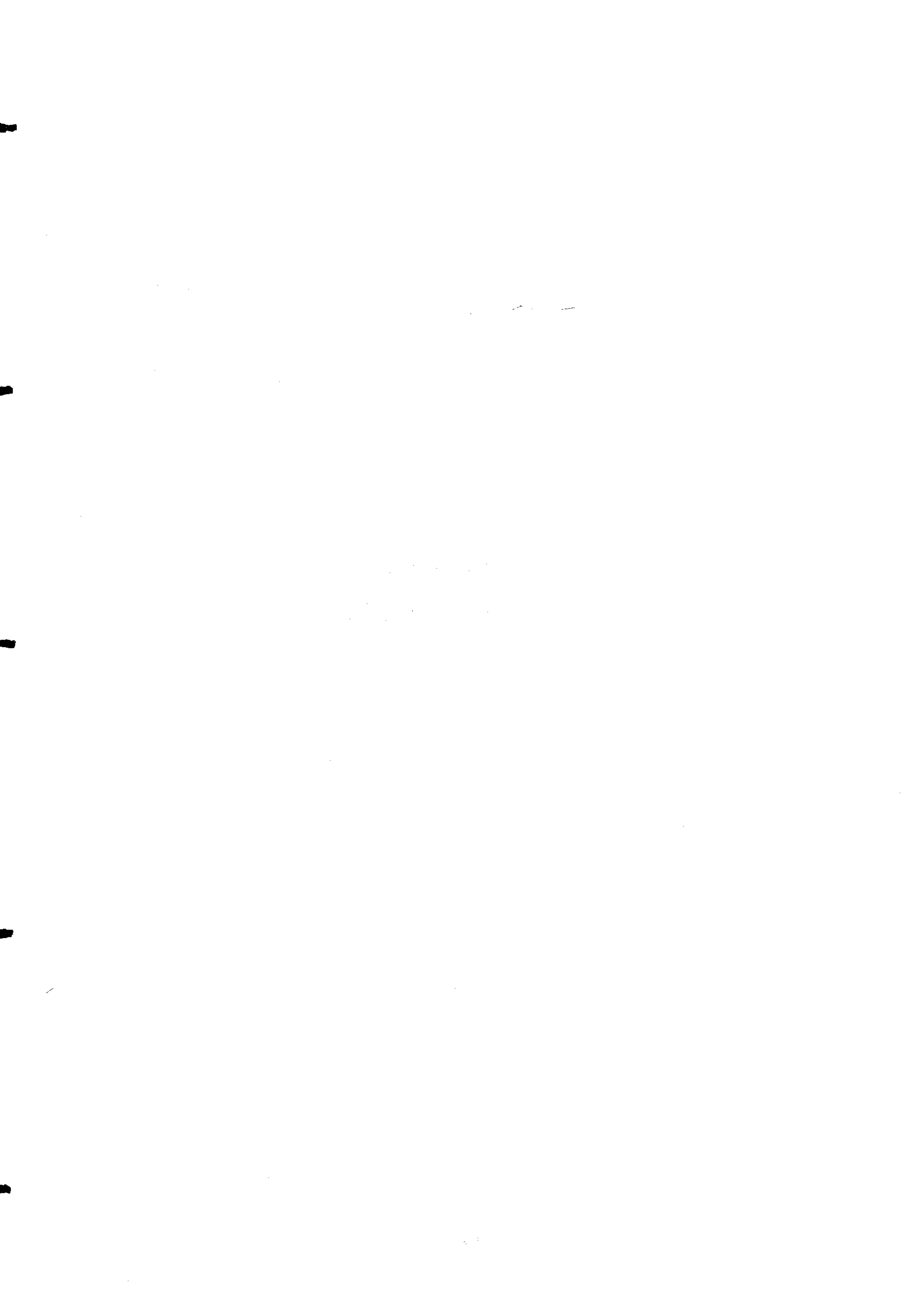
---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي مجلد ٥ ص ١٥٦ مطابع الشعب.

(٢) صحيح البخاري جـ ٣/٦ مطابع دار الشعب.

الفصـل الخامـس

الإيمان باليوم الآخر





المبحـــث الأول

اليــوم الآخــر

١ ـ تعريف اليوم الآخر[1]:

المراد باليـوم الآخر أن يعتقـد المسلم أن هناك آخـر يوم من أيـام الحياة البشرية على سطح الكرة الأرضية، وآخر يوم من أيام الحياة الكونيـة، وأن هذا اليوم آتٍ لا مرية فيه، وبانتهائه تنتهي الحياة الكونية كلها.

ومع هذا الاعتقاد فإنـه يجب على المسلم أن يعتقد كـذلك أنـه بانتهـاء هـذه الحياة ستبـدأ حياة أخـرى، ويبعث الله الناس جميعـاً ليحاسبهم على مـا عملوا إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٢ ـ أهمية الإيمان باليوم الآخر:

لعقيدة اليوم الآخر أهمية عظيمة في الـرسالـة الإسلاميـة، وتتضح هـذه الأهمية فيما يأتي:

أ ـ ربطها بعقيدة الإيمان بالله:

لقد ربط القرآن الكريم بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخـر في آيات كثيرة، فكما أن للإيمان بـالله منزلـة عظيمـة في الإسلام، كـذلك فـإن الإيمان

---

(١) أنظر عقيدة المؤمن ـ أبو بكر الجزائـري ص ٢٦٢ والعقائـد الإسلاميـة سيد سـابق ص ٢٦٠.

باليوم الآخر يأتي في المرتبة الثانية بعد هذا الركن العظيم، ركن الإيمان بالله.

ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾[1]، ومنها قوله تعالى: ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾[3].

ورسول الله ﷺ كذلك ربط في أحاديث كثيرة بين هذين الركنين العظيمين ركن الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، من ذلك قوله ﷺ:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[4]. متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه..»[5]. متفق عليه.

ب ـ موقف العرب من عقيدة البعث:

لقد كان فريق من العرب في شبه الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية وإبانها ينكرون البعث، ويرجعون الموت الذي يحصل بين الناس إلى الدهر، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا

---

(١) النساء ٥٩.

(٢) التوبة ١٨.

(٣) الممتحنة ٦.

(٤) رياض الصالحين ـ باب حق الجار والوصية به ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٥) المرجع السابق ـ باب بر الوالدين وصلة الأرحام ص ١٥٢.

الـدنيا نمـوت ونحيا ومـا يهلكنا إلا الـدهر ﴾[1]، ﴿ زعم الـذين كفـروا أن لن يبعثوا قل بلى وربّي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾[2].

وفي هذا المعنى يقول شاعرهم:

حيـــاة ثم مـــوت ثـم بعـث   حـديث خرافـة يا أم عمـرو

وقالوا في المثل: لا نبيع ذرة منقودة، بذّرة موعودة[3].

إلى جانب هؤلاء كانت طائفة أخرى من العرب تؤمن بوجود اليـوم الآخر ولكنه إيمان فيه كثير من الخرافات والأوهام، من ذلك أن العـربي كان يـوصي قبل وفاته إن هو مـات أن تدفن نـاقته معـه حتى إذا كان يـوم القيامـة بعث من قبره، وبعثت معه دابته يركبها ليتجول بها على أرض الساهرة، وإلى ذلك أشار الشاعر في جاهليته وهو يخاطب ابنه موصياً إياه وقد حضره الموت:

يـــا سعـد: إمـــا أهلكن فـــإنني   أوصيك، إنّ أخا الوصاةِ الأقربُ
لا تتـــركن أبـــاك يعثـــر راجـــلاً   في الحشر، يصرع لليدين وينكبُ
ولعـــل لي ممـا تـــركتُ مـطيـــةً   في القبر أركبها وقيل لنا اركبوا[4]

ولهـذا جاءت الـرسالـة الإسلاميـة لتـرد على منكـري البعث إنكـارهم، وتثبت لهم أن يوم المعاد آتٍ لا شك فيه، ثم لتقدم تصوراً صحيحاً عن كل ما يتصل بالآخرة من بعثٍ وجزاء وعقاب ونشور.

جـ ـ إكثار القرآن والسنّة من الحديث عن اليوم الآخر:

والأمـر الثالث الـذي تتبين فيه أهميـة الإيمان بـاليـوم الآخـر أن القـرآن الكريم أكثر من الحديث عن هذا اليـوم في سور كثيـرة لأن اليقين بالآخـرة هو مفـــرق الـطريق بين من يعيش بين جـــدران الحسّ المغلقـــة، ومن يعيش في

(١) الجاثية ٢٤.
(٢) التغابن ٧.
(٣) عقيدة البعث في الإسلام ص ٤٠.
(٤) القضـــاء والقـــدر ـ عبـــد الكـــريم الـخـــطيب ص ١٤٤.

الوجود الرحيب، بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للخير، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك وراء هذا الحيز الصغير المحدود[1].

فسورٌ من القرآن الكريم جاءت تحمل عنوان اسم من أسماء يوم القيامة كسورة الواقعة والقارعة والقيامة والتغابن والزلزلة.

ومن اهتمام القرآن الكريم بالإيمان باليوم الآخر - أنه سمىٰ هذا اليوم بأسماء كثيرة فهو يوم الخلود ﴿ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾[2]، وهو يوم البعث ﴿ فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾[3]، وهو يوم الفصل ﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾[4]، وهو يوم الخروج ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾[5]، وهو يوم الحسرة ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذْ قضي الأمر ﴾[6].

ومن عناية القرآن الكريم باليوم الآخر أنه تحدث بإسهاب عن مجموعة من الحقائق التي يشملها الإيمان باليوم الآخر كعذاب القبر ونعيمه، والساعة وأماراتها، والبعث والحشر والحساب والصراط والجنة والنار.

فعن الساعة وأماراتها مثلاً يقول الله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربّكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعةٍ عمّا أرضعت وتضع

---

(١) في ظلال القرآن ١/٤١.
(٢) قٓ ٣٤.
(٣) الروم ٥٦.
(٤) الدخان ٤٠.
(٥) قٓ ٤٢.
(٦) مريم ٣٩.

كل ذات حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عـذاب الله شديد ﴾[1].

وعن الجنـة يقول الله تعـالى: ﴿ إن للمتقين مفـازاً، حـدائق وأعنـابـاً، وكواعب أترابا، وكأساً دهاقاً، لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ﴾[2].

وتحدثت السنّة كذلك كثيراً عن اليوم الآخر وما يتصل به، فعن أمـارات الساعة مثلاً يقول رسول الله ﷺ في حديث مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قـال: طلع النبي ﷺ علينا ونحن نتـذاكر، فقـال: ما تـذاكرون؟ قـالوا: نـذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجّال والـدابـة، وطلوع الشمس من مغـربهـا ونـزول عيسى بن مـريم، ويـأجـوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، خسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بجـزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من البحر تطرد الناس إلى محشرهم.

وعن الحشر يقول رسول الله ﷺ في حديث مسلم:

«تدنى الشمس يوم القيـامة من الخلق حتى تكـون منهم كمقدار ميـل، فيكـون الناس على قـدر أعمـالهم في العـرق، فمنهم من يكـون إلى كعبيـه، ومنهم من يكـون إلى ركبتيه، ومنهم من يكـون إلى حقويـه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً».

٣ ـ الحكمة من وجود اليوم الآخر:

فما هي الحكمة من وجود اليوم الآخر؟ تتجلى هذه الحكمة فيما يلي:

- إن هذا الكون العظيم، وهذه السمـوات البديعـة، وتلك الأرض الممهدة، وذاك الإنسـان الذي خلق في أحسن صـورة. . كل أولئـك لم يخلقهم الله عبثاً ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾[3].

---

(١) الحج ١ ـ ٢.
(٢) النبأ ٣١ ـ ٣٥.
(٣) صٓ ٢٧.

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾[1].

ونفي الباطل والعبث عن خلق السموات والأرض والإنسان يؤكد حقيقة وجود اليوم الآخر، فالإنسان ليس هدفه في الحياة أن يعب من شهوات البطون والفروج كما زعم أصحاب العقائد الإلحادية حينما قال شاعرهم:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام
فإن فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

ولو أن الغاية من الخلق هي هذه (الطعام والشراب والمنام) لكانت البهائم أوفر حظاً من الإنسان نفسه لأنها تنال قسطاً أكبر من هذه الشهوات في كثير من الأحيان.

وإنما للوجود غاية، والغاية الأولى منه هي عبادة الله كما قال سبحانه: ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون ﴾[2]، والعبادة ليست محصورة في الصلاة والصيام والزكاة والحج فحسب، هذه هي أبرز الشعائر التعبدية، ولكن العبادة بمعناها الواسع هي طاعة الله والالتزام بأوامره، الاستسلام والانقياد والخضوع لأحكامه، والتقيد بمنهجه، هذا المنهج الذي يتمثل في افعل هذا ولا تفعل هذا.

والذي ينظر إلى الرسالة الإسلامية يجدها مجموعة من الأوامر والنواهي، وقراءة سريعة للقرآن الكريم تعطينا الدليل على ذلك، قال تعالى: ﴿ سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون، الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾[3]، ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾[4]، ﴿ وأحل الله البيع وحرّم الربا ﴾[5]،

---

(١) المؤمنون ١١٥.
(٢) الذاريات ٥٦.
(٣) النور ١ ـ ٢.
(٤) البقرة.
(٥)

﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾[1].

فالله إذن قد أمر ونهى، وهذه الأوامر وتلك النواهي لا مجال فيها لاختيار الإنسان وإنما هي إلزامية ومخالفتها توجب العقوبة، ومعنى هذا أن الغاية من الخلق هي فعل الأوامر واجتناب النواهي.

- ولله الأسماء الحسنى، والصفات العظمى، وله الكمال المطلق، ومن صفات الله أنه الحكم العدل، ومن حكمه وعدله ألا يسوي بين الأبرار والأشرار، والأخيار والفجار، والطائعين والعصاة، والمؤمنين والكافرين.. فكان لا بد من وجود اليوم الآخر يجمع الله فيه هؤلاء جميعاً فيوفيهم أجورهم بغير ظلم أو هضم، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم:

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾[2]، ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون؟ ﴾[3].

ثم إن الناظر إلى واقع الحياة البشرية تأخذه الدهشة حينما يرى أن العدالة منتفية على سطح الكرة الأرضية.. فكم من أناس يظلمون في دمائهم وأرواحهم، ولا ينال الظالمون جزاءهم في هذه الحياة؟ بل تجدهم في كثير من الأحيان يتحركون بحرية وأمان، ويعيشون حياة رغد ونعيم، فهل من العقل أن يذهب ذلك المظلوم بدمه وروحه دون أن يُقْتَص من الذي ظلمه؟.

وكم من أناس تهتك أعراضهم بغير حق، ولا يستطيعون أن يصلوا إلى حقهم في هذا الوجود، بينما تجد الذين هدروا كرامة الناس، ونالوا من شرفهم وعرضهم يتحركون فوق الأرض بحرية وأمان، فهل من العقل أن

---

(١) الحجرات.

(٢) الجاثية ٢١..

(٣) القلم ٣٥ ـ ٣٦.

يسوى بين هذا الذي أُهينَ في عرضه، وهذا الذي اعتدى على الأعراض؟.

وكم من أناس يفتنون ويظلمون في دينهم وعقيدتهم، فيوقع الطغاة فيهم أشد ألوان التنكيل والتعذيب والإيذاء، فهل من العقل أن يسوّي الموت بين هؤلاء وهؤلاء؟.

فلا بد إذاً من وجود اليوم الآخر يجازى الناس فيه على أعمالهم على قاعدة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[1].

- وتتجلى الحكمة من وجود اليوم الآخر أن الإنسان حينما يحمل هذه العقيدة في قلبه، ويؤمن بها إيماناً يجعله مراقباً لنفسه في عمله اعتقاداً منه أنه محاسب على ما تقدمه يداه في هذه الحياة الدنيا إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ولكي تدرك قيمة الإيمان باليوم الآخر تصور أن مجتمعاً من المجتمعات البشرية نزعت منه المحاكم الجنائية والمدنية، فلا يعاقب المجرمون على جرمهم، ولا ترد الحقوق إلى أصحابها، فالنتيجة الطبيعية لانتفاء وجود المحاكم شيوع الفوضى في ذلك المجتمع، وانتشار الجريمة بشكل لا يستطيع الناس معه أن يحيوا حياة آمنة مطمئنة.

فلا بد إذن من وجود اليوم الآخر ودعوة الناس جميعاً للإيمان بهذا الركن لضبط أعمالهم وتصرفاتهم على سطح الكرة الأرضية.

٤ ـ حتمية نهاية الحياة:

لقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد حتمية الموت منها قوله تعالى: ﴿ كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[2]، والموت في الآية يجري قانونه على كل من في الأرض. ثم يوسع القرآن

---

(١) الزلزلة ٧ ـ ٨.

(٢) الرحمن ٢٧.

الكريم دائرة الموت في آية ثانية فيقول سبحانه وتعالى: ﴿كل نفسٍ ذائقة الموت﴾[1]، فهو تعالى وحدهُ الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهّار بالديمومة والبقاء فيكون آخراً كما كان أولاً، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة، وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم، وانتهت البرية أقام الله القيامة﴾[2].

وقد قال أمية بن أبي الصلت:

من لم يَمُتْ عَبْطَةً[3] يَمُتْ هَرَمَاً   للموتِ كأسٌ والمرء ذائقها[4]

وقال شاعر آخر:

الموتُ بابٌ وكلُّ الناسِ داخلُهُ   فليتَ شعري بعدَ البابِ ما الدارُ؟[5]

والآية التي وسع الله فيها دائرة الموت حيث يشمل كل شيء في هذا الكون هي قوله تعالى:

﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[6]، ﴿فكل شيء زائل، وكل شيء ذاهب، المال والجاه والسلطان والقوة والحياة والمتاع، وهذه الأرض ومن عليها، وتلك السموات وما فيها ومن فيها، وهذا الكون كله ما نعلمه وما نجهله، كله هالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقي متفرداً بالبقاء﴾[7].

وصدق الشاعر حين قال:

---

(١) آل عمران ١٨٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٤٣.

(٣) شاباً.

(٤) (٥) الجامع لأحكام القرآن ٤/١٩٧.

(٦) القصص ٨٨.

(٧) في ظلال القرآن ٥/٢٧١٦.

قضى على خلقه المنايا فكل شيء سواه فاني [1]

٥ ـ إمكانية نهاية العالم :

وهل إمكانية انتهاء الحياة البشرية على سطح الأرض ثم نهاية هذا الكون كله ممكن وقوعه؟

ونجيب على هذا السؤال من منطلقين اثنين.

المنطلق الأول: النظرة الإيمانية القرآنية.

والمنطلق الثاني: النظرة العلمية.

أ ـ النظرة الإيمانية القرآنية:

إن انتهاء الحياة وزوال العوالم كلها خبر، وحتى نتيقن من صدق هذا الخبر لا بد أن نسأل: من الذي أخبرنا عن ذلك؟ ثم في أي مصدر ذكر ذلك الخبر؟.

إن الذي أخبرنا بزوال الكون وانتهاء الحياة البشرية هو الخالق سبحانه وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾، وقد ذكر هذا الخبر في أوثق مصدر، وأصدق كتاب عرفته البشرية، وتلك حقيقة لا تحتاج إلى برهان، فقد مضى على نزول هذا القرآن الكريم أكثر من ألف وأربعمائة سنة ولم يزد فيه حرف من يوم أن نزل ثم دوّن في عهد أبي بكر، وجمع في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنهما وإلى يومنا هذا، ولم ينقص منه حرف كذلك.

ويقينية نهاية العالم من منطلق النظرة الإيمانية القرآنية واقعة وحادثة لأن الله هو الذي خلق هذا الكون وحده، ولم يشاركه أحد في خلقه، ولأنه تباركت أسماؤه يملك السلطة والقدرة على إنهاء الحياة الكونية في أي وقت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٦٥.

يشاء دون أن يعارضه أحد من خلقه في ذلك، فله الملك وحده، وله الأمر وحده.

ب ـ ماذا يقول العلم والعلماء حول نهاية العالم؟ :

لقد أثبت العلماء إمكانية زوال العالم، وإليك بعض أقوالهم:

يقول جون كوثران: «تدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الانتهاء، ولكن بعضها يسير نحو الزوال بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة[1].

وقوانين الديناميكا الحرارية دليل آخر من دلائل حتمية نهاية الحياة، يقول البروفسور فرانك ألن: «إن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذٍ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة»[2].

وإن الكون فضاء لا حدود له، تدور فيه أعداد هائلة من السيارات والنجوم.. وهذا الدوران يمكن أن يتحول في يوم ما إلى صدام عظيم لا يمكن تصوره، فدراسة علم الفلك تؤكد إمكان اصطدام الأجرام السماوية، وتثبت أن الغريب حقاً هو عدم توقع هذا الصدام[3].

ولكن هل إنهاء الحياة الكونية مرتبط بنضوب الطاقة الحرارية في الشمس خلال مئات السنين؟ أو أن نهاية العوالم كلها مرتبط أيضاً بحدوث اصطدام بين النجوم والسيارات والمجرات في الفضاء الكوني؟.

---

(١) الثقافة الإسلامية (١٠١) ص ٣٤.

(٢) المعاد ص ٤٩.

(٣) الإسلام يتحدى ص ٨٢ ـ ٨٣ ط بيروت ١٩٧٣.

إن إنهاء الحياة البشرية وإنهاء الحياة الكونية أمره إلى الله وحده، فالقوة الإلهية تتدخل تدخلاً مفاجئاً لإحداث خلل في جزء من جزئيات النظام الكوني، ومن ثم تنفرط السنن الكونية كلها بدءاً من الشمس، وتسيير الجبال، وتناثر النجوم، وتفجير البحار كما في قوله تعالى: ﴿ إذا الشمس كوّرت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سيّرت، وإذا العشار عطلت، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سجرت. . . ﴾[1].

والقرآن الكريم يشير إلى أن قيام الساعة وإنهاء الحياة يحدث فجأة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا: يا حسرتنا على ما فرّطنا فيها ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾[3].

٦ ـ حتمية البعث وأدلته:

كانت قضية البعث هي مشكلة العقيدة عند كثير من الأقوام منذ أن أرسل الله رسله للناس، يأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ويخوفونهم يوم البعث والحساب، وهؤلاء كانوا كثيراً ما يقرون بوجود الله، ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور، يرون البعث أمراً عسيراً بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء والذرات[4]، فيرد الله على هؤلاء مزاعمهم الباطلة، ويثبت حتمية البعث في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[5].

---

(١) التكوير ١ ـ ٦.
(٢) الأنعام ٣١.
(٣) الزخرف ٦٦.
(٤) في ظلال القرآن ٤/٢١٧٢.
(٥) النحل ٣٨.

وقوله تعالى: ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا، قل بلى وربي لتبعثنّ ثم لتنبؤن بما عملتم، وذلك على الله يسير ﴾[2].

● **دلائل البعث:**

وهل البعث ممكن وقوعه؟ إن الدلائل على حتمية وقوع البعث كثيرة منها ما يلي:

١ ـ إخبار القرآن الكريم والسنّة النبوية:

لقد أخبر الله تعالى في محكم كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن البعث واقع لا محالة، وأن القيامة قائمة لا ريب فيها، وأن النا ں سيخرجون من قبورهم وقد عادت إليهم الحياة ثانية ليقفوا بين يدي الله يحاسبهم على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ثم إن رسول الله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي أخبرنا في أحاديث صحيحة ثابتة عن حتمية وقوع البعث.

فالمؤمن بعد شهادة القرآن الكريم وشهادة السنّة النبوية يوقن يقيناً جازماً لا ريب فيه أن الساعة آتية، وأن البعث واقع لا محالة.

٢ ـ دليل النشأة الأولى:

لقد كادت كلمة الذين أنكروا البعث تجمع على أنهم لا يتصورون أن تعود الحياة ثانية إلى الإنسان وقد أصبح لحمه لحماً بالياً، وأصبحت عظامه عظاماً رميمة، وتناثرت أجزاؤه إلى ذرات تكاد لا تجد لها أثراً.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في مواضيع كثيرة منها قوله تعالى:

---

(١) الأنعام ٣٦.

(٢) التغابن ٦.

﴿ وقالوا أئذاً كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وكانوا يقولون أئذاً متنا وكنا تاباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾[2].

ومنهج القرآن الكريم في الرد على منكري البعث يقوم على قاعدة أن الذي أنشأ الحياة الأولى قادر على أن ينشأها مرة ثانية، وهذا أمر بديهي لا يحتاج إلى مزيد من الدليل والجدال والبرهان.. فالذي صنع الطائرة النفاثة، أو السيارة المتحركة أو أية آلة اخترعتها اليد البشرية قادر على أن يصنع مئات من النماذج المتكررة لتلك الآلة دون أن يجد أي عنت أو صعوبة.

وقبل النظر في قدرة الله على البعث لا بد من التأمل والتفكر في القضية الأولى قضية النشأة الأولى، فمن الذي خلق الإنسان الأول على سطح الكرة الأرضية؟ ومن الذي خلق الحيوان المنوي والبويضة الأنثوية ابتداء؟ ثم من الذي أعطى لهما الخصائص التي بالتقائهما تنشأ الحياة الإنسانية وفق السنّة الإلهية؟ إنه لا أحد يدعى ذلك، وعدم ادعاء أحد من الخلق أنه أنشأ النشأة الأولى فيه إثبات على أن القوة الخالقة قوة الله هي التي أوجدت النشأة الأولى، وهي التي خلقت الإنسان من ماء مهين.

فإذا أقر العقل بهذه الحقيقة فلا بد أن يقر بقدرة الله على إحياء الموتى، وبعثهم من قبورهم يوم القيامة.

وقد ناقش القرآن الكريم منكري البعث على ضوء هذه الحقيقة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وقالوا أئذاً كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً؟ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا؟ قل الذي فطركم أول مرة ﴾[3].

---

(١) الإسراء ٤٩.

(٢) الواقعة ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) الإسراء ٤٩ ـ ٥٠.

وفي موضع آخر تناول القرآن هذه القضية فقال الله تبارك وتعالى :

﴿ ويقول الإنسان أئذاً ما متّ لسوف أخرج حياً، أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾[١].

فلينظر الإنسان إلى نشأته الأولى فأين كان؟ وكيف كان؟ إنه لم يكن ثم كان، والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى[٢].

ويأتي العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ وبيده عظم حائل فيقول: يا محمد أرني أن الله يحيي هذا بعد ما رمّ؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم «ويبعثك الله، ويدخلك النار؟»[٣].. فنزل قوله تعالى:

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرةٍ وهو بكل خلقٍ عليم ﴾[٤].

٣ ـ دليل إحياء الأرض الميتة:

ومن الأدلة على وقوع البعث دليل إحياء الأرض الميتة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيءٍ قدير ﴾[٥].

فهذه الأرض الميتة الهامدة التي لا ينبت فيها شيء إذا أنزل الله عليها المطر اهتزت وتحركت بالنباتات، وحييت بعد موتها وربت وارتفعت ثم أنبتت ما فيها من ثمار وزروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها، هذه الأرض التي أحياها الله، وأنبت منها هذه الأنواع قادر

---

(١) مريم ٦٦ ـ ٦٧.
(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٣١٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥/٥٨.
(٤) يسن ٧٨ ـ ٧٩.
(٥) الحج ٥ ـ ٦.

على إحياء الموتى وهو على كل شيءٍ قدير[1].

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذه الآية في حديث لقيط بن عامر فيما رواه الإمام أحمد أنه قال: قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: أما مررت بوادي أهلك ممحلاً؟ قال: بلى قال: ثم مررت به يهتز خضراً؟ قال: بلى، قال: فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه[2]؟.

ومنها قوله تعالى: ﴿ يخرج الحيّ من الميت، ويخرج الميت من الحيّ، ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾[3].

وإنها لآية عظيمة متكررة «ففي كل لحظة يخرج حي من ميت، ويخرج ميت من حي، في كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبّة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى الحياة، وفي كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفي أجلها فتتحول إلى هشيم أو طعام»[4].

وحقيقة الإحياء والإماتة تركيب لأجزاء جسم الإنسان، ثم تفكيكها عند الموت، ثم إعادة تركيب بعضها في بعض عند البعث، وهذه العملية عملية الفك والتركيب عملية يسيرة وهينة على الله، وإننا لنجد في واقع حياتنا البشرية أمثلة تدل على ذلك، فالسيارة مثلاً يستطيع المهندس الميكانيكي أن يفك أجزاءها كلها، فيحيلها إلى كتل من حديد ثم إن أراد فباستطاعته أن يعيدها إلى ما كانت عليه، وذلك بتركيب أجزاء بعضها في بعض.

ولقد ضرب الله مثلاً في القرآن الكريم على هذا ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأماته

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٥٣١.

(٢) المصدر السابق ٢/٥٣١.

(٣) الروم ١٩.

(٤) في ظلال القرآن ٥/٢٧٦٢.

الله مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم قال: بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبيّن له قال اعلم أن الله على كل شيءٍ قدير ﴾[1] فعظام حماره حين نظر إليها وجدها قد تفرقت عن يمينه ويساره، ولما أراد الله إحياءه ثانية ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم فيها، ثم كساها لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً[2]، فلما رأى الحمار وقد دبت فيه الحياة من جديد ﴿ قال اعلم أن الله على كل شيءٍ قدير ﴾.

* * *

---

(١) البقرة ٢٥٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير جـ ١/٣٠١.

الفصـــل الســـادس
الإيمان بالقضاء والقدر

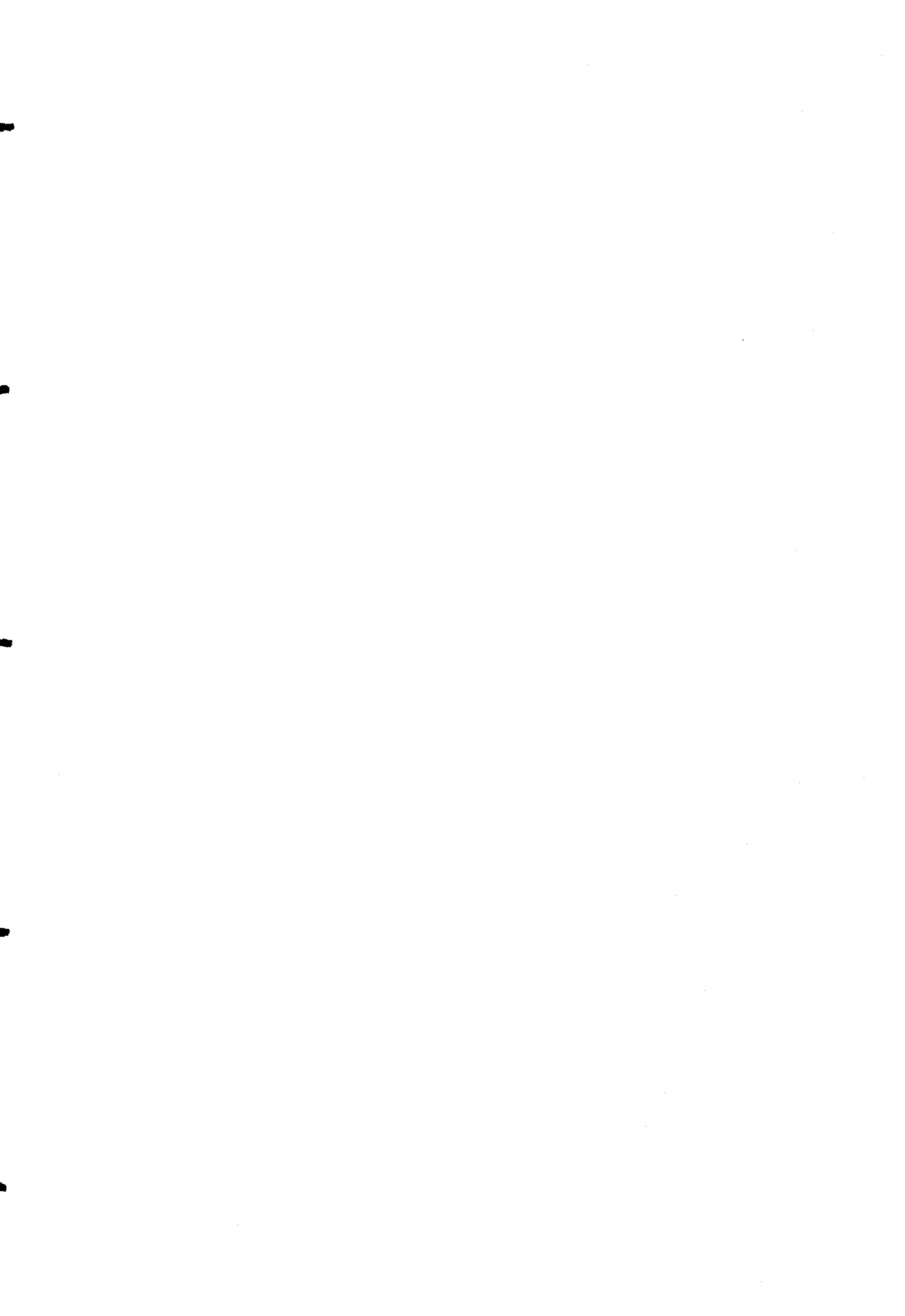
وفيه مبحثان :

المبحث الأول : وجوب الإيمان بالقضاء والقدر .

المبحث الثاني : من مسائل القضاء والقدر .

المبحث الأول
الإيمان بالقضاء والقدر

- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر.
- معنى القضاء والقدر.
- رأي العلماء في القضاء والقدر.



المبحـــث الأول
الإيمان بالقضاء والقدر

١ ـ وجوب الإيمان بالقضاء والقدر:

الإيمان بعقيدة القضاء والقدر واجب، إذ لا يعـد المؤمن مؤمناً إذا أنكـر هذا الركن من أركان الإيمان، ودلائل وجوب الإيمان به كثيـرة جاء ذكـرها في القرآن الكريم والسنّة النبوية.

فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ ما كـان لنفس أن تموت إلا بـإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾[1]، وقولـه تعالى: ﴿ مـا أصاب من مصيبـة إلا بإذن الله ﴾[2]، ومن السنّـة النبويـة قولـه ﷺ في حديث عمـر بن الخطاب حين جـاءه جبريـل وسـأله قـال: «ما الإيمـان؟ قال: أن تؤمن بـالله وملائكتـه وكتبه ورسله واليـوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» رواه مسلم.

ومنه ما جـاء في صحيح مسلم أن رسـول الله ﷺ قال: «المؤمن القـوي خير وأحب إلى الله عزّ وجلّ من المؤمن الضعيف وفي كل خيـر، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصـابك شيء فـلا تقل لـو فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

---

(١) آل عمران ١٤٥.

(٢) التغابن ١١.

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن عمر وعن رسول الله ﷺ قال: إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

ومن أقوال الصحابة في وجوب الإيمان بالقضاء والقدر قول عبد الله بن عباس رضي الله عنه «القدر نظام التوحيد، فمن وحّد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله، وكذب بالقدر نقضَ تكذيبُهُ توحيدَهُ»[1].

ومن أقوال التابعين في هذا قول مالك بن أنس:

«ما أضل من كذب بالقدر، لو لم يكن عليهم حجّة إلا قوله تعالى:

﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ لكفى بها حجّة»[2].

وكان الحسن البصري يقول:

«من كذب بالقدر فقد كذب بالحق، إن الله قدر خلقاً وقدر أجلاً، وقدر بلاءً، وقدر مصيبة، وقدر معافاة، من كذب بالقدر فقد كذب بالقرآن»[3].

٢ ـ معنى القضاء والقدر:

القضاء يستعمل في اللغة على وجوه[4]:

فالقضاء بمعنى الأمر كقوله تعالى: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾[5]، معناه: أمر.

والقضاء بمعنى الخلق كقوله تعالى: ﴿ فقضاهن سبع سموات في

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٥٨/٨.

(٢) الشريعة للآجري ص ١٢٦ نقلاً عن كتاب القضاء والقدر ص ٢٣٥ لعبد الكريم الخطيب.

(٣) الشريعة للآجري ص ٢١٨ نقلاً عن كتاب عبد الكريم الخطيب (القضاء والقدر ص ٢٣٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي جـ ٢٣٧/١٠.

(٥) الإسراء ٢٣.

يومين ﴾[1]، يعني خلقهن.

والقضاء بمعنى الحكم كقوله تعالى: ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾[2]، يعني احكم ما أنت تحكم.

والقضاء بمعنى الفراغ، كقوله: ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفيان ﴾[3]، أي فرغ منه، والقضاء بمعنى الإرادة كقوله تعالى: ﴿ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[4].

ويلاحظ أن كلمة القضاء في هذه الآيات الكريمة تدور حول معنى واحد هو الفصل والحسم في الأمر[5].

أما كلمة القدر فقد جاء ذكرها في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾[6]، ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ [7] ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ [8] وقوله تعالى: ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ [9] ، ويلاحظ أن كلمة القدر في هذه الآيات تفيد التقدير والتدبير.

وهذا يقودنا إلى طرح هذا السؤال: ما الفرق بين القضاء والقدر؟.

جاء في كتاب تعريف عام بدين الإسلام[10]:

---

(١) فصلت ١٢.
(٢) طه ٧٢.
(٣) يوسف ٤١.
(٤) البقرة ١١٧.
(٥) القضاء والقدر ـ الخطيب ص ١٧٤.
(٦) المرسلات ٢٣.
(٧) الحجر ٢١.
(٨)
(٩)
(١٠) تعريف عام بدين الإسلام ـ علي الطنطاوي ص ١٥٢.

«الفرق بين القدر والقضاء ـ ولله المثل الأعلى ـ العمارات التي تقام عليها لوحة فيها إن التصميم للمهندس الفلاني، والتنفيذ للمقاول الفلاني، فالمهندس يرسم الخريطة، ويعين علو البناء، وسمك الجدران، وما يوضع فيها من الحديد والإسمنت، ونسبة كل منها، وما يكون فيها من أبواب ونوافذ، يقدر ذلك ويحدده، هذا مثال القدر، والمقاول ينفذ ما قدره المهندس، وهذا مثال القضاء، وكلاهما لله وحده».

بعد هذا نستطيع أن نعرف القضاء والقدر كما قال الأستاذ أبو بكر الجزائري في كتابه عقيدة المؤمن:

«إنها علم الله تعالى الأزلي بكل ما أراد إيجاده من العوالم والخلائق، والأحداث والأشياء، وتقدير ذلك الخلق، وكتابته في الذكر الذي هو اللوح المحفوظ كما هو حين يقضي بوجوده في كميته، وكيفيته، وصفته، وزمانه، ومكانه، وأسبابه، ومقدماته ونتائجه، بحيث لا يتأخر شيء من ذلك عن إبانه، ولا يتقدم عما حدد له من زمان، ولا يتبدل في كميته بزيادة أو نقصان، ولا بتغيير في هيئته ولا صفته بحالٍ من الأحوال»[1].

٣ ـ رأي العلماء في القضاء والقدر:

للإيمان بالقضاء والقدر أهمية عظيمة في عقيدة المسلم، «وقد ثبت بالتجربة أن خللاً بسيطاً يقع في جهاز ضخم كطائرة (الكونكورد الفرنسية البريطانية قد يفسده ويدمره فيحيله إلى خراب ودمار، وكذلك الحال بالنسبة إلى عقيدة القضاء والقدر إذا وقع فيها أدنى انحراف، وبأي درجة أوقع صاحبه في ضلال وخطأ لا حد لهما»[2].

ولهذا فإن خير سبيل تتوقف به معرفة القضاء والقدر إنما هو سبيل القرآن والسنّة قال السمعاني:

---

(١) عقيدة المؤمن ـ أبو بكر الجزائري ص ٣٤٨.

(٢) عقيدة المؤمن ـ أبو بكر الجزائري ص ٣٧٤.

«إن معرفة القضاء والقدر تتوقف على الكتاب والسنّة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه عليهما ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العليل»[1].

● **مذهب القدريَّة والجبرية:**

وحينما بعد المسلمون الأوائل في العصور الإسلامية الأولى عن القرآن والسنّة في معرفة عقيدة القضاء والقدر أدى ذلك إلى اختلاف في آرائهم وتصوراتهم، وظهور فرق متعددة لكل منها تصور معين يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم والسنّة النبوية.

ومن أشهر هذه الفرق: القدرية، والجبرية.

أما الجبرية فحقيقتها أنه ليست للإنسان أية مشيئة أو اختيار في أفعاله، بل مردها إلى الله وحده وكانوا يقولون:

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيَّان التحرك والسكون
جنون بك أن تسعى لرزق ... ويرزق في غيباته الجنين[2]

وهذا المذهب في القضاء والقدر مذهب باطل لأنه يرفع التكليف والمسؤولية عن الإنسان تجاه أفعاله وأعماله وإن كانت أعمالاً فاسدة.

أما القدرية فإنهم يرون أن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله، ولا إرادة لله فيها ولا مشيئة بل وصل الأمر بهم إلى أن يقولوا: إن أفعال العباد لم يعلمها الله قبل وجودها[3]، وأنه غير قادر أو مريد لها[4].

وهذا علم من أعلام القدرية يقول وهو واصل بن عطاء:

---

(١) الإيمان بالقضاء والقدر ص ٥٨.
(٢) عقيدة المؤمن ـ أبو بكر الجزائري ص ٣٥٥.
(٣) عقيدة المؤمن ـ الجزائري ص ٣٥٣.
(٤) القضاء والقدر ـ الخطيب ص ٢١٣.

«العبد هو الفاعل للخير والشر والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وهو المجازىٰ على فعله»[1].

ومذهب القدرية في القضاء والقدر مذهب كذلك باطل لأن مشيئة الإنسان مقيدة بمشيئة الله وليست مطلقة تفعل ما تشاء، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾[2]. وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الإرادة في كتاب الله على نوعين:

١ ـ **الإرادة الكونية**: وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة في مثل قوله تعالى: ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا، ولكن الله يفعل ما يريد ﴾[4].

٢ ـ **الإرادة الدينية الشرعية**: وهي محبة المراد ورضاه، ومحبة أهله والرضاء عنهم، وجزاهم بالحسنى كما قال تعالى: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[5]، فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة[6].

● **مذهب أهل السنّة والجماعة:**

إذا تبين فساد مذهب القدرية والجبرية في مسألة القضاء والقدر، فما هو مضمون مذهب أهل السنّة والجماعة فيها؟.

---

(١) الملل والنحل ـ الشهرستاني جـ ١ / ص ٦٣ ـ مكتبه الحسينيّة التجارية ١٩٤٨.
(٢) الدهر ٣٠.
(٣) الأنعام ١٢٥.
(٤) البقرة ٢٥٣.
(٥) البقرة ١٨٥.
(٦) فتاوى ابن تيمية جـ ٨ /١٨٧ ـ ١٨٨.

وخير من يشير إلى مذهب السلف الصالح في عقيدة القضاء والقدر شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يقول:

«مذهب أهل السنّة والجماعة أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه لا رب غيره، ولا خالق سواه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيءٍ قدير، وبكل شيء عليم والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله، منهي عن معصية الله ومعصية رسوله، فإن أطاع كان ذلك نعمة، وإن عصى كان مستحقاً للذم والعقاب، وكان لله عليه الحجة البالغة ولا حجة لأحد على الله تعالى، وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته، لكن يحب الطاعة، ويأمر ويثيب أهلها على فعلها ويكرمهم ويبغض المعصية وينهى عنها، ويعاقب أهلها ويهنيهم»(١).

وقال في موضع آخر(٢):

«ومما ينبغي أن يعلم أن مذهب سلف الأمة مع قولهم إن الله خالق كل شيء وربه ومليكه أن العبد فاعل حقيقة، وله مشيئة وقدرة، قال تعالى: ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾(٣).

* * *

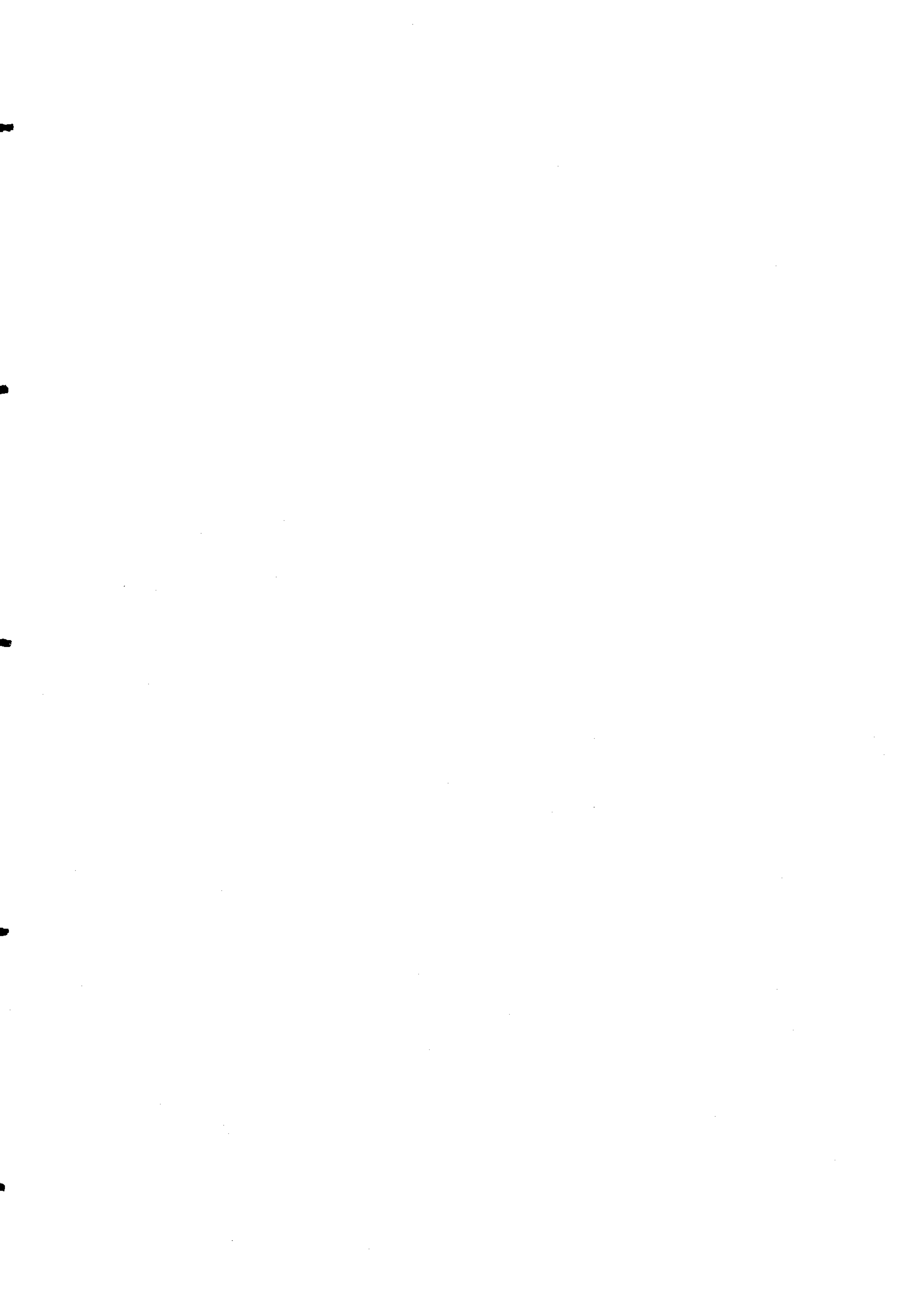
* *

*

(١) الفتاوى ٦٣/٨.

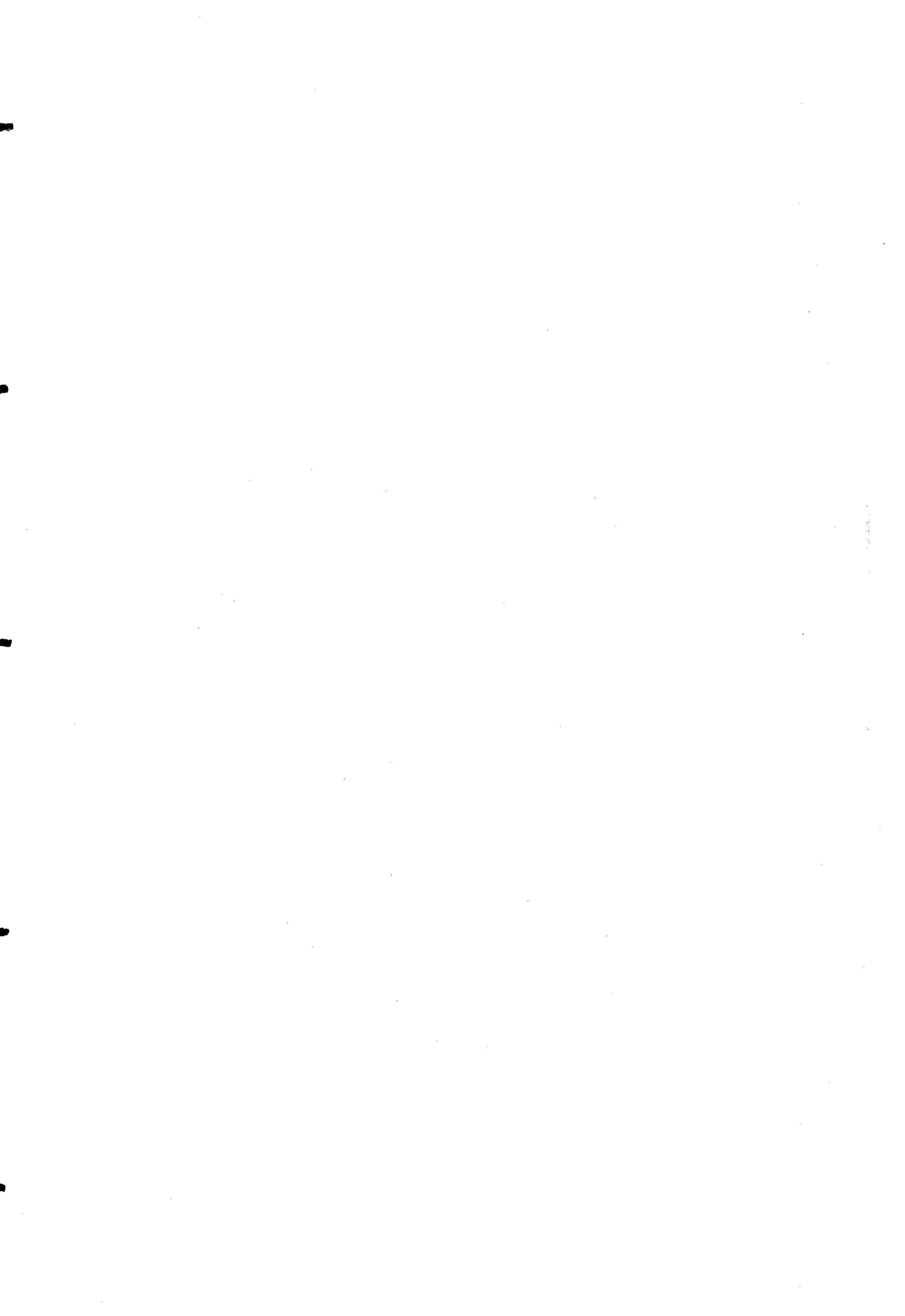
(٢) التفاوى ١١٨/٨.

(٣) التكوير ٢٨ ـ ٢٩.



المبحـــث الثانـــي
من مسائل القضاء والقدر

- هل الإنسان مسير أم مخيّر؟
- الاحتجاج بالقدر.
- هل الحسنة والسيئة من عند الله؟.
- الهداية والضلال.



المبحـــث الثانـــي
من مسائل القضاء والقدر

المسألة الأولى: هل الإنسان مسيّرٌ أو مخيّرٌ؟

وللإجابة على هذا السؤال أقول:

إن الإنسـان في حيـاتـه ليس مسيّـراً على إطـلاقـه، وليس مخيّـراً على إطلاقه، ونستطيع أن نجعل أفعاله في دائرتين، دائرة يكون فيها مسيّراً لا إرادة له فيها ولا مشيئة، ودائرة يكون فيها مخيّراً له الاختيار والإرادة والمشيئة.

● **دائرة التسيير في حياة الإنسان[1]:**

في هذه الدائرة من حياة الإنسان نجد أنه لا يملك فيها أية حرية أو إرادة أو اختيار إنما هو مرتبط بمشيئة الله وإرادته، من ذلك أنه يحسّ ويتحرك وليس له أي اختيار في إحساسه وحركة أجهـزة بدنـه فدورتـه الدمـوية تـدور وليس له مشيئة أو إرادة في إدارتها، والأجهزة التي أودعها الله في جسمـه تعمل بـانتظام كالجهاز الهضمي والجهـاز البولي والجهـاز التناسلي والجهـاز العصبي، وليس للإنسان أية إرادة في عمل تلك الأجهزة.

---

(١) لمن أراد المزيد فلينظر في المراجع الآتية: تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٠٤.
أفعال الإنسان بين الجبر والاختيار ص ٩، القضاء والقدر للشعراوي ص ٤٢ - ٤٣.
تعريف عام بدين الإسلام ص ١٥٣ - ١٥٤.

كـذلك فـإن أي إنسان لا يستـطيع التحكم في عضـلات قلبـه ومعـدتـه وأمعائه، ولا يملك أن يجعل نفسه قصيراً أو طويـلاً، أبيض أو أسود، ذكـراً أو أنثى، جميلاً أو ذميماً لأنه ليس له إرادة واختيار في هذا كله.

ومن الأمـور التي لا اختيـار لـلإنسـان فيهـا تحـديـد أجله، متى ينتهي الأجل، وفي أي مكان وعلى أية صورة، فمرد ذلك كله إلى مشيئـة الله وإرادته مصـداقـاً لقـولـه تعـالى: ﴿ ومـا كـان لنفس أن تمـوت إلا بـإذن الله كتـابـاً مؤجلاً ﴾[1]، وقوله سبحانـه: ﴿ وما تـدري نفس ماذا تكسب غـداً وما تـدري نفس بأي أرض تموت ﴾[2].

وما يصيب الإنسان من أمراض ومصائب بعد اتخاذه للأسباب فـإن ذلك من إرادة الله ومشيئته ولا اختيار له فيها لقوله تعالى:

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة، سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾[3].

كذلك فإن الإنسان لا يستـطيع أن يتصـرف في سنن الله التي أودعها في هـذا الكون العـظيم فليس لأحد من الخلق إرادة في أن يغيـر نظام القمـر، أو الشمس، أو الأرض، أو سائر النجوم والكواكب والمجرات، لأن هذه الأشيـاء التي خلقهـا الله تعالى إنمـا هي مرتبـطة بمشيئـة وإرادة واحـدة هي مشيئـة الله وإرادتـه، وقد أشـار القرآن الكـريم إلى هذا حين حـاجّ إبراهيم عليـه الصـلاة والسلام أحد الطغاة في عصـره، ﴿ ألم ترَ إلى الـذي حاج إبـراهيم في ربه أن آتـاه الملك، إذ قال إبـراهيم ربي الذي يحيـي ويميت، قـال أنا أحيـي وأميت قـال إبراهيم فـإن الله يأتي بـالشمس من المشرق فـأت بها من المغـرب فبهت

---

(١) آل عمران ١٤٥.

(٢) لقمان ٣٤.

(٣) القصص ٦٨.

الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[1].

● **الدائرة التي يكون الإنسان فيها مخيراً:**

هناك دائرة من الأفعال يكون الإنسان فيها مخيّراً، ودلائل هذا التخيير كثيرة أذكر مِنْها ما يلي:

١ ـ حملهُ الأمانة:

يقول الله تعالى: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾.

«إن السماوات والأرض والجبال.. هذه الخلائق الضخمة الهائلة تطيع الخالق طاعة مباشرة بلا تدبر ولا واسطة.. وتخضع لمشيئة الله بلا جهد منها وكد ولا محاولة، وأشفقت من أمانة التبعة، أمانة الإرادة، إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم القليل القوة، الضعيف الحول، المحدود العمر.. حملها وهو مريد مدرك يختار طريقه»[2].

٢ ـ الاختيار مرتبط بالعقل:

يقول الله تعالى: ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[3].

إن الإنسان صالح لأن يكون شاكراً لأنعم الله أو كفوراً بها، وهو قادر على أن يتبع سبيل الهدى باختياره، وقادر كذلك على أن يتبع سبيل الشر باختياره وإرادته (وهديناه النجدين)، فما الذي يرجح اختياره بين هذه البديلات، الشكر والكفر، الخير والشر، الحق والباطل؟ لا شك أنه العقل.

والعقل هو مناط التكليف والاختيار، ففي المنطقة التي يعرض فيها الفعل على العقل بأن يفعل أو لا يفعل، تلك هي المنطقة التي يوجد فيها

---

(١) البقرة ٢٥٨.

(٢) في ظلال القرآن ٥/٢٨٨٤ ـ ٢٨٨٥.

(٣)

الاختيار، وهي منطقة التكليف من الله، ولهذا فإنه سبحانه رفع التكليف عن المجنون لأنه فقد العقل وفقد معه القدرة على الاختيار.

كذلك فإن التكليف الشرعي في افعل ولا تفعل رفعه الله عن الذين لم يبلغوا الحلم لأنه لم تنضج عقولهم التي يستطيعون بها أن يحكموا على الأشياء[1].

٣ ـ الإنسان صاحب حرية وإرادة:

والإنسان مخيّر في أفعاله لأنه يملك الحرية في أدائها، والشريعة الإسلامية لا تقبل في بنائها الإنساني أي فرد جاء إلى الإسلام عن طريق الإكراه لأن الإيمان مقره القلب، والقلب لا يقبل شيئاً جاء إليه عن طريق الإكراه والقهر لقوله تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا ممنين؟ ﴾[3].

ومن تقرير الإسلام لحرية الإنسان أنه حمّله المسؤولية تجاه أعماله ومحاسبته عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ والإنسان مخير كذلك في أفعاله لأنه يملك الإرادة التي يستطيع بها أن يفعل الخير والشر فهو قادر على أن يشرب كأساً من عصير تفاح بإرادته، وقادر على أن يشرب كذلك كأساً من خمر بإرادته، أو يأكل لحم خنزير بمحض اختياره وإرادته، وقادر أيضاً على أن يأكل لحم شاة مذبوحة ذبحاً شرعياً.

ونظرة إلى الأوامر والنواهي التي جاء ذكرها في القرآن الكريم تبين أن الله يلقي أوامره على من يشاء من خلقه سواء كانوا بشراً أم حيوانات أم جمادات، من ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء

---

(١) انظر القضاء والقدر ـ محمد متولي الشعراوي ص ٤٣.

(٢) البقرة ٢٥٦.

(٣) يونس ٩٩

اقلعي ﴾[1]، وقوله: ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾[2] وقوله: ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا: أتينا طائعين ﴾[3].

بينما نجد أن النواهي يلقيها الله سبحانه على الإنسان وحده لأنه يملك العقل والحرية والإرادة، «والحكمة من الأمر والنهي بالنسبة للإنسان أنه ـ ور وقد لا يقبل ما أمر به على خلاف الكائنات الأخرى فإنها حين تؤمر لا تجد معها من القوى ما يخرج بها عن امتثال ما تؤمر، والنهي يوجه للإنسان وحده لأن من شأنه التحرك الإرادي إلى كل جهة»[4].

٤ ـ الأمر بالأخذ بالأسباب:

ومما يؤكد حقيقة أن الإنسان مخيّر في أعماله أن الله أمره بالأخذ بالأسباب لأنه سبحانه لما خلق الكون وما فيه، جعل له سنناً ونظماً يسير عليها ومن هذه السنن والنظم ترتيب المسببات على الأسباب، فما من شيء في هذا الكون إلا ويحكمه قانون السببية والإنسان جزء من هذا الكون، فهو خاضع لهذا القانون في أمور دينه ودنياه على السواء»[5].

ومن الأخذ بالأسباب أن الإنسان يكون مسؤولاً عن بعض المصائب التي تصيبه إذا كانت قد وقعت بسبب الإهمال والتقصير في اتخاذ الوسائل التي تقيه عن الوقوع فيها، ففي غزوة أحد حمَّل اللهُ المسؤولية على الصحابة فقال: ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أنّىٰ هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾[6] أي حلت الهزيمة بسبب تقصيركم.

---

(١) هود ٤٤.
(٢) سبأ ١٠.
(٣) فصلت ١١.
(٤) القضاء والقدر ـ الخطيب ص ٤٠ ـ ٤١.
(٥) تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٠٧.
(٦) آل عمران ١٦٥.

ومن الأخذ بالأسباب أن رسول الله ﷺ ظاهر في الحرب بين درعين، وقدم إليه رجل مجذوم مهاجراً فرده ومنعه من دخول البلد، وفي القرآن الكريم: ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾[1]، ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وقد ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله أن الأخذ بالأسباب لا يقدح في الشرع، وإن كان مجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب.

استمع إليه وهو يقول:

«الإعراض عن الأسباب قدح في الشرع، ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب.. فالولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج، بل كم من إنزال ولم يولد له؟ وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي بسبب، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[2].

٥ ـ دعوة إلى العمل:

ومما يدل على أن الإنسان مسؤول عن أعماله، ومخيّر في أدائها إن خيراً فخير وإن شراً فشر أن الرسالة الإسلامية أوجبت على الإنسان أن يعمل الصالحات، ويجتنب المعاصي والسيئات، وألا يتكل إلى ما قدره الله عليه، وقضى به، ففي الحديث المتفق عليه[3] عن علي ابن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد في جنازة فقال: ما منكم أحد إلا قد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسّر لما خلق له، أما من كان من أهل

---

(١) النساء ٧١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٧٠.

(٣) المصدر السابق ٨/٦٧ ـ ٦٨.

السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ قوله تعالى:

﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾[1].

المسألة الثانية: الاحتجاج بالقدر:

يذهب بعض الناس الجهلة إلى أنهم مجبورون على أفعالهم الخيرية والشرية، فمهما عملوا من عمل فلا قيمة لعملهم هذا لأنه مكتوب لهم السعادة والشقاوة وهم في بطون أمهاتهم، وقالوا: «لا وجه لإتعاب النفس في عمل ولا كفها عن ملذوذ، فإن المكتوب واقع لا محالة»[2].

وقد استدلوا على هذا الفهم الخاطىء بطائفة من أحاديث رسول الله ﷺ، منها ما رواه الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرَسَلُ إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه، وأجله وعمله، وشقي أو سعيد».

وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال:

«أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: ما هو كائن إلى يوم القيامة»[3] وفي صحيح البخاري عن عمَران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «كان الله ولا شيء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض، وفيَ لفظ ثم خلق السموات والأرض»[4].

---

(١) ٥ ـ ١٠.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/٢٧٢.

(٣) المصدر السابق ٨/١٨٤.

(٤) المصدر السابق ٨/٦٦.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ قال:

«إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[1].

والإيمان بهذا النوع من القدر واجب، وجاحده كافر، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض ذكره أحاديث رسول الله ﷺ:

«إن الله سبحانه علم أهل الجنة من أهل النار من قبل أن يعملوا الأعمال، وهذا حق يجب الإيمان به، بل ذهب الأئمة كمالك والشافعي وأحمد أن من جحد هذا فقد كفر، بل يجب الإيمان أن الله علم ما سيكون كله قبل أن يكون، ويجب الإيمان بما أخبر من أنه كتب ذلك وأخبر به قبل أن يكون»[2].

أما تفسير هذه الأحاديث النبوية التي استشهد بها أولئك الجهلة من الناس فيمكن ذكره فيما يلي:

١ - إن علم الله وكتابه قد تقدم بما سيكون عليه حال الناس من سعادة وشقاء قبل أن يخلقوا، وهذا العلم الإلهي لا تأثير له في وجود المعلوم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقاً على بعض الأحاديث النبوية السالفة:

«قد أخبر رسول الله في هذه الأحاديث أن الله سبحانه وتعالى تقدم علمه وكتابه وقضاؤه بما سيصير إليه العباد من السعادة والشقاوة»[3].

والعلم بأن الشيء سيكون، والخبر عنه بذلك، وكتابةُ ذلك لا يوجب استغناء ذلك عما به يكون من الأسباب التي لا يَتِمُّ إلا بها. .

وعلم الله نوعان - فإن علمه بنفسه سبحانه لا تأثير له في وجود

---

(١) المصدر السابق ٨/٦٦.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/٦٦.

(٣) المصدر السابق ٨/٦٦.

المعلوم، أما علمه بمخلوقاته التي خلقها بمشيئته وإرادته فهو مما له تأثير في وجود معلوماته. . فإذا أخبر بما سيكون قبل أن يكون فعلمه وخبره حينئذٍ ليس هو المؤثر في وجوده»[1].

ونستطيع القول: إن صفة العلم عند الله هي التي جعلت الحق سبحانه وتعالى كأنه يقول أنا سأخلق عبدي فلاناً، وسأخلقه مختاراً في بعض الأعمال وغيْرَ مختار في بعضها الآخر وغير المختار لا دخل فيه للحساب، وسأدخل في الحساب فيما له فيه اختيار، لكن عبدي أنا أعرفه سيختار كذا، ويختار كذا، فهو قد كتب هذا لأنه علم[2].

٢ ـ إن الله تعالى لما قدر السعادة والشقاء فإنه قدر مع ذلك موجباته وأسبابه فالسعيد لا يكون سعيداً إلا بعمله، وصاحب الشقاء لا يشقى كذلك إلا بعمله، ففي الصحيحين أنه قيل: يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم، قال: ففيم يعمل العاملون؟ قال: كل ميسر لما خلق له».

وفي صحيح مسلم أن سراقة بن مالك بن جعشم جاء إلى رسول الله قال: يا رسول الله: بَيِّنْ لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ففيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل قال كل عامل ميسّر بعمله»[3].

قال ابن تيمية بعد أن ذكر هذين الحديثين الشريفين[4]:

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/٢٧٤ ـ ٢٨٠.

(٢) هذا ما ذكره فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتاب القضاء والقدر ص ٥٦ ـ وانظر في كتاب الإيمان بالقضاء والقدر ص ٦٤ ـ ٦٥ والثقافة الإسلامية (١٠١) ص ١١١ ـ ١١٢، وأركان الإيمان ـ الغاوجي ص ٣١٠.

(٣) مجموع الفتاوي ٨/٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٤) مجموع الفتاوي ٨/٢٧٥.

«إن من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فإنه ييسر لعمل أهل الشقاوة.. كذلك الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب.. ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾[1]، ﴿ وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾[2]. وقوله: ﴿ ما سلككم في سقر قالوا: لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين ﴾[3].

٣ - إن الذي يحتج بالقدر على معاصيه وآثامه حاله كحال إبليس حين اعتل بالقدر حيث قال ﴿ فبما أغويتني لا زنين لهم في الأرض ﴾[4]، ومثله كمثل رجل طار إلى داره شرارة نار فقال له العقلاء: أطفئها لئلا تحرق المنزل، فأخذ يقول: من أين كانت؟ هذه ريح ألقتها؟ وأنا لا ذنب لي في هذه النار، فما زال يتعلل بهذه العلل حتى استعرت وانتشرت وأحرقت الدار وما فيها، هذه حال من شرع يحيل الذنوب على المقادير، ولا يردها بالاستغفار والمعاذير[5].

والاحتجاج بالقدر إنما يصح في المصائب التي تصيب الإنسان ولم يكن هوسبباً فيها بترك طاعة أو مخالفة سنّة من السنن الشرعية والكونية[6].

كالرجل يسقط عليه جدار، أو تلدغه حية، أو تنقلب به سيارة، أو يصاب بمرض عضال، وكما قال ابن تيمية رحمه الله: »إن القدر نؤمن به، ولا نحتج به، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول.. ولو كان القدر حجة لم نقطع يد سارق ولا قتل قاتل ولا أقيم حد

---

(١) الحاقة ٢٤.

(٢)

(٣) القمر ٤٢.

(٤) الحجر ٣٩.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/١٩٩ - ٢٠٠.

(٦) عقيدة المؤمن - أبو بكر الجزائري ص ٣٧٢.

على ذي جريمة، ولا جوهد في سبيل الله، ولا أمر بالمعروف، ولا نهى عن المنكر»[1].

* * *

المسألة الثالثة: هل الحسنة والسيئة من عند الله؟

يقول الله تعالى: ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك، قل كل من عند الله ﴾.

لقد تنازع في هذه الآية الكريمة كثير من الناس من مثبتي القدر ونفاته، فمنهم من قال إن الحسنة من الله، والسيئة من الناس، وقال آخرون: إن الحسنة والسيئة من عند الله سبحانه.

والرأي الصحيح في هذه المسألة يمكن تتبعه فيما يلي:

١ - المراد بالحسنة في الآية الكريمة السابقة السلامة والأمن، والخصب والرخاء، والغنى والسراء والمراد بالسيئة الأمراض والخوف والجدب والغلاء[2]، وسبب نزولها أن المنافقين كانوا إذا أصابتهم حسنة نسبوها إلى الله تعالى، وأنها ليست باتباع الرسول ﷺ ولا الإيمان به، وإن تصبهم سيئة أضافوها إلى الرسول ﷺ.

٢ - الحسنات قسمان:

الأول: حسنات سببها الإيمان والعمل الصالح.

الثاني: حسنة سببها الإنعام الإلهي على العبد بما يؤتيه من مال حلال، وسلامة بدن.

فهذه الحسنات التي بمعنى الطاعة أو بمعنى النعمة لا تنسب إلا

---

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية ٨/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٢) أنظر مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٤١٥، والبحر المحيط ٣/ ٣٠٠ ومفاتيح الغيب ١٠/ ١٨٨.

إلى الله تعالى وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾[1]، قال ابن عباس وقتادة والحسن معنى الآية أنه أخبر تعالى أن الحسنة منه بفضله[2]، وقال السدي: «ما أصابك من حسنة فمن الله» أي من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته[3].

وقال الفخر الرازي: «اعلم أن الحسنة تقع على النعمة والطاعة»[4].

٣ ـ السيئات كذلك قسمان[5]:

الأول: سيئة سببها المعصية والذنوب.

الثاني: السيئة سببها الابتلاء والنقمة.

فأما السيئة التي بمعنى المعصية فلا تنسب إلى الله سبحانه، وإنما تنسب للإنسان بسبب ذنوبه ومعاصيه، قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾[6] أي فمن قبلك، ومن عملك أنت كما قال تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾[7]. وقال السدي «فمن نفسك» أي بذنبك[8].

وجاء في مفاتيح الغيب قول الرازي:

«السيئة تارة تقع على البلية والمحنة، وتارة تقع على الذنب

---

(١) النساء ٧٩.

(٢) البحر المحيط ٣/ ٣٠٠.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٤١٥.

(٤) التفسير الكبير ١٠/ ١٨٩ وانظر عقيدة المؤمن ـ أبو بكر الجزائري ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

(٥) أنظر عقيدة المؤمن ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

(٦) النساء ٧٩.

(٧) الشورى ٣٠.

(٨) مختصر تفسير ابن كثير جـ ١/ ٤١٥.

والمعصية. . والسيئة في قوله تعالى: ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ هي المعصية، وهي مضافة إلى العبد»[1].

وأما السيئة التي بمعنى البلية والشدة والنقمة فهي من عند الله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ قل كل من عند الله ﴾ أي الحسنة التي بمعنى النعمة والسيئة التي بمعنى البلية كلاهما من عند الله تعالى، ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة، وإلينا ترجعون ﴾[2].

وعلى هذا فالحسنة والسيئة بهذا المعنى كل داخل في قضاء الله وقدره[3].

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يتفق رأيه مع ما أثبته، فقد جعل الحسنات والسيئات حيناً ترد بمعنى الطاعات والمعاصي، وحيناً آخر ترد بمعنى النعم والمصائب قال رضي الله عنه: «المراد بالحسنات والسيئات في بعض الآيات النعم والمصائب كقوله تعالى: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾. . وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يُجزى إلا مثلها ﴾[4]، فإن المراد بها الطاعة والمعصية»[5].

* * *

المسألة الرابعة: الهداية والضلال:

يرى بعض الناس أن الله تعالى قدر على عباده الضلال والهداية، فجعل فريقاً منهم ضالين، وجعل فريقاً آخر مهتدين، والذي دفعهم إلى هذا أن آيات من كتاب الله تعالى تفيد في ظاهرها هذا المعنى، من ذلك قوله تعالى:

---

(١) التفسير الكبير ١٠/١٨٨.
(٢) الأنبياء ٣٥.
(٣) التفسير الكبير ١٠/١٨٨.
(٤) الأنعام ١٦٠.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/١١٠ - ١١١ - ١١٢ بشيء من التصرف.

﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾[1]، وقوله: ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾[2]، وقوله: ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾[3]، فهل هذا القول صحيح؟.

وللإجابة على هذا السؤال أقول:

١ ـ الهداية نوعان:

أحدهما: إبانة الحق، والدعاء إليه، وهذا النوع من الهداية تصح إضافته إلى الرسل والدعاة لأنهم يرشدون الناس إلى الحق، وبهذا يفسر قوله تعالى: ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾[4]. أي تدعو وترشد[5] كقوله تعالى: ﴿ ولكل قوم هادٍ ﴾.

والنوع الثاني[6]: الهداية هو خلق الهداية في قلوب العباد، وحملهم على طريق الخير وتذليل العقبات أمامهم، وهذا الوجه من الهداية لا تصح إضافته إلا إلى الله، ومنه قوله تعالى: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾، فاهتداء القلوب لا يقدر عليه غير الله عزّ وجلّ، ولهذا قال في رسول الله ﷺ: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء ﴾[7].

وهذه الآية كما جاء في الحديث الصحيح نزلت لما حضر أبا طالب الوفاةُ، فجاءه رسولُ الله ﷺ: فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية ابن

---

(١) البقرة ٢٦.
(٢) فاطر ٨.
(٣) المدثّر ٣١.
(٤) الشورى ٥٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٦٠ وانظر المصدر نفسه: ٩/ ٢٨٥.
(٦) أصول الدين ص ١٤٠ ـ ١٤١.
(٧) القصص ٥٦.

المغيرة فقال رسول الله ﷺ: «يا عم، قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: بل على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.. فنزل[1] قوله تعالى: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾.

٢ ـ ما ذكره الله تعالى في كتابه من هدايته لقوم وإضلاله لآخرين قائم على نظام الأسباب والمسببات[2]، فهداية الله تعالى التي بمعنى الحمل على طريق الحق والخير لا تكون إلا للذين آمنوا به، واتبعوا منهجه، وأقبلوا على أوامره، واجتنبوا نواهيه، كقوله تعالى: ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب وقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾[3]. فمن وجدت فيه هذه الصفات: الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق مما رزقه الله استحق هداية الله، ومنه قوله تعالى: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾[5] كذلك الضلال فإنه قائم على نظام الأسباب والمسببات، فالله تعالى لا يضل إلا الفاسقين، والجاحدين، والكافرين، والآيات القرآنية تشير إلى هذا المعنى من ذلك قوله تعالى: ﴿ وما نضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ﴾[6]، فكل من نقض الميثاق، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، وأفسد في الأرض استحق

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨/٢٧٢ ـ ٢٧٣.
(٢) تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٠٩.
(٣) البقرة ٢ ـ ٣.
(٤) العنكبوت ٦٩.
(٥) محمد ١٧.
(٦) البقرة ٢٦ ـ ٢٧.

الضلال ومنه قوله تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾. وقوله تعالى: ﴿ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾[1].

ومما ينبغي أن يؤمن به أن الهداية والضلال كل من عند الله إذا كانت الهداية بمعنى خلق الاهتداء في قلوب العباد، وإذا كان الضلال بمعنى خلق الضلال في قلوب الناس، آخذين بعين الاعتبار السنّة الإلهية التي أشرت إليها من قبل وهي ارتباط الهداية والضلال بالأسباب والمسببات وقال أهل السنّة في هذا: «من أضله الله فبعدله ومن هداه فبفضله»[2].

* * *

وفي ختام حديثي عن القضاء والقدر أشير إلى أمرين اثنين:

فأما الأمر **الأول**: فهو أن سر القدر، وكلمة الله تعالى في الأفعال والإيمان والكفر، والهداية والضلال فأمر خاص به سبحانه ينبغي علينا أن لا نخوض فيه، ولا أمرنا بإدراكه أو طلبه[3].

الأمر **الثاني**: من الخير ألا نخوض في القضاء والقدر، بل علينا مع إيماننا به أن نمسك عن الحديث فيهما، لأنه من دخل باب القدر لا يأمن الزيغ والفتنة.

وبهذا جاءت النصوص والآثار، ففي مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ خرج والناس يتكلمون في القدر، فقال: ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض بهذا هلك من كان قبلكم».

وروى أن رجلاً أتى علي بن أبي طالب فقال له: أخبرني عن القدر

---

(١) مريم ٧٥.

(٢) أصول الدين ص ١٤٠.

(٣) انظر أركان الإيمان ص ٣١٩.

قال: طريق مظلم فلا تسلكه، قال أخبرني عن القدر قال: بحر عميق فلا تلجه، قال: أخبرني عن القدر، قال: سر الله فلا تكلفه.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى أحد ولاته وقد سأله عن القدر وعن حكم الذين يجادلون فيه وينكرونه[1]:

«ما أحدث المسلمون محدثة، ولا ابتدعوا بدعة هي أبين أمراً ولا أثبت من القدر، ولقد كان ذكره في الجاهلية الجهلاء، يتكلمون به في كلامهم، ويقولون به في أشعارهم، يعزون به أنفسهم على مصائبهم، ثم جاء الإسلام فلم يزده إلا شدة وقوة ثم ذكره رسول الله ﷺ في غير حديث ولا حديثين ولا ثلاثة، فسمعه المسلمون من رسول الله ﷺ، فتكلموا فيه في حياة الرسول، وبعد وفاته، تعلما وتصديقاً وتسليماً لربهم، أن يكون شيء من الأشياء لم يحط به علماً، ولم ينفذ فيه قدره. . لقد قرأوا كتاب الله ما قد قرأتم وعلموا من تأويله ما جهلتم، ثم قالوا بعد ذلك كله:

كتاب وقدر، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً»[2].

* * *

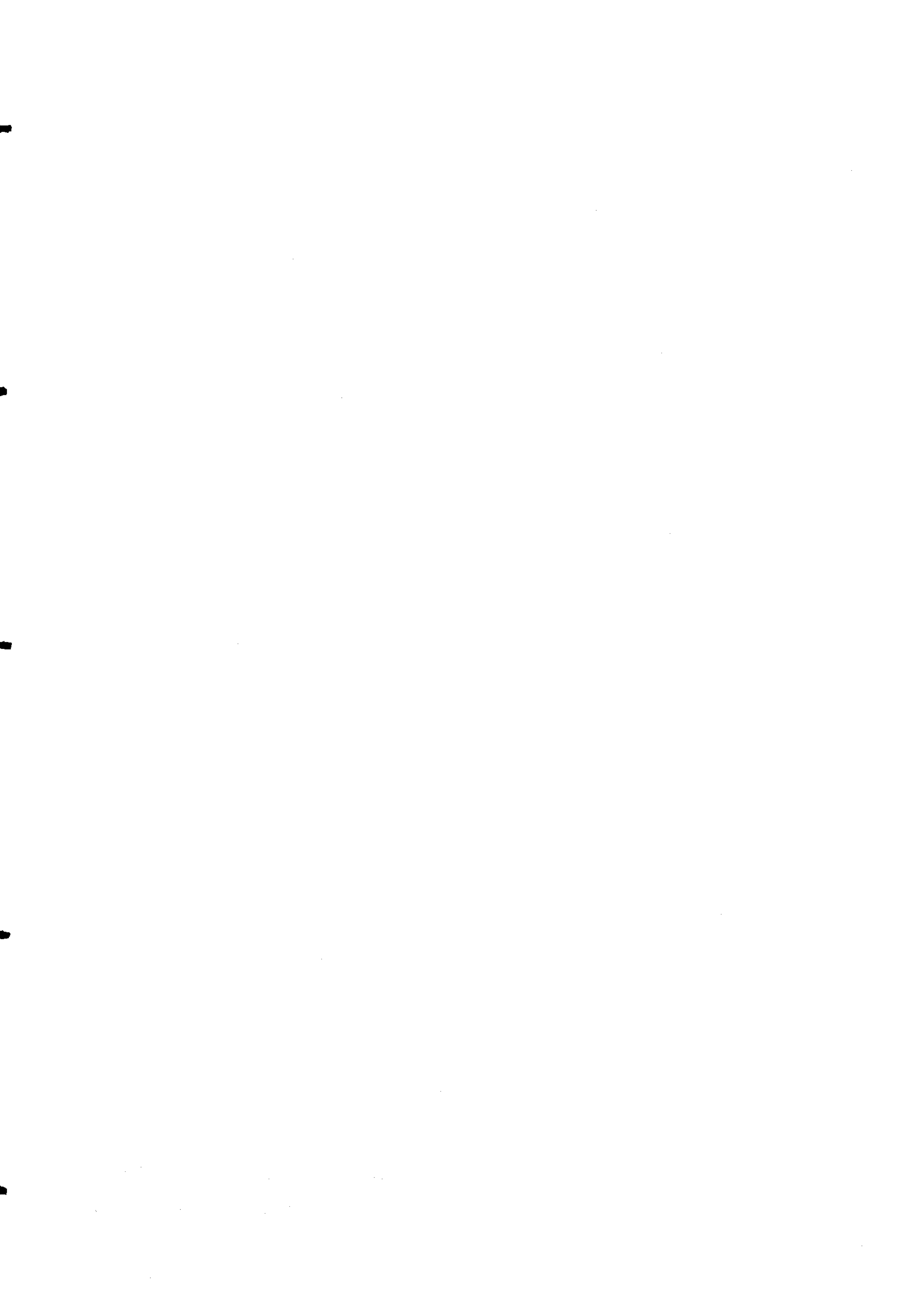
* *

*

---

(١) الشريعة للآجري ص ٢٠٧ نقلاً عن القضاء والقدر للخطيب ص ٢٧٠.

(٢) القضاء والقدر ـ للخطيب ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.



الفهرست

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة